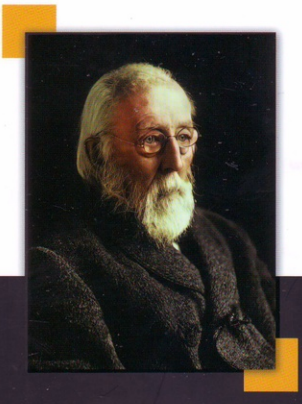
سلسلة كلاسيكيات الإسلام

ثيودور نولدكه

فيلولوجيا الإسلام

القرآن، الإسلام، الخليفة



ترجمة وتقديم:

هشام شاميّة



فيلولوجيا الإسلام

القرآن، الإسلام، الخليفة

تأليف:
ثيودور نولدكه

ترجمة وتقديم:
هشام شاميّة

فيلولوجيا الإسلام

القرآن، الإسلام، الخليفة

Philology of Islam: The Qur'an, Islam, and Caliph

تأليف: ثيودور نولدكه

ترجمة: هشام شاميّة

إخراج الكتاب وتصميم غلافه: القسم الفني
الناشر: المركز الأكاديمي للأبحاث، بيروت: الطبعة الأولى 2024
العراق/ تورنتو - كندا
The Academic Center for Research
TORONTO -CANADA

موثق بدار الكتب والوثائق الكندية.
Library and Archives Canada
ISBN : 978-1-990131-29-5
naseer.alkaabi@uokufa.edu.iq



مُقَدّمةُ المترجم

تطوَّرَتْ الحاجةُ لفهمِ الإسلام بعيداً عن موطن ظهوره بعد قرون عديدة من القرن الثاني عشر حين تُرجِم القرآنُ إلى اللاتينيَّة للمرة الأولى، إذ كان القرن التاسع عشر مكلَّلاً برسالة أبراهام غايغر عام 1834 بعنوان: «ماذا أخذَ القرآنُ عن اليهوديَّة؟»، ثم رسالة ثيودور نولدكه عام 1856 بعنوان «تاريخ القرآن»، حيث عزم المستشرقون على دراسة الإسلام وموضوع الخلافة، والبحث في حقيقة نبوَّة محمَّد والوحي ومعجزته القرآن، والمقصدُ الرئيس لترجمةِ هذه الكتاب تقديمُ صورةٍ عن البدايات الأوليَّة للدراسات الاستشراقيّة، ومساهمةٌ صغيرةٌ في نقلِ بحوث المستشرقين إلى العربيَّة، لاسيّما أنَّ ثيودور نولدكه اسمٌ مألوف بين العلماء الذين يدرسون القرآن، ليس بين المستشرقين الألمانيين فحسب، بل بين المستشرقين جميعاً، خاصةً حين يتعلَّق الأمرُ في التاريخانيَّة الفيلولوجيَّة ودراسة النص الدينيّ وتاريخ القرآن، فهو المستشرق الألمانيّ الذي عاش في الأعوام 1836–1930، حين كان العلمُ الأوروبيّ في ذروة تطوره.

ولد نولدكه في مدينة هاربوغ (هامبورغ الآن) في 2 آذار 1836، حيث تلقى تعليمه الأساسيّ في إحدى المدارس الابتدائيَّة في المدينة،

وانتقل مع عائلته إلى لينغن حين كان يبلغ من العمر 13 عاماً (1849)، وبدأ نولدكه في هذه المدينة دراسة الأدب الكلاسيكيّ واليونانيّ واللاتينيّ تحت إشراف والده، الذي كان ناظراً للمدرسة الثانويَّة فيها، وفي عام 1853، انتقل إلى غوتينغن في شمال ألمانيا لمواصلة تعليمه على المستوى الجامعيّ من خلال التخصص في اللغات السامية في جامعة غوتينغن، فدرس اللغات السامية والفارسيّة والتركيّة والسنسكريتيّة، وحصل على الدكتوراه الأولى عام 1856 برسالته المعروفة حول «تاريخ القرآن»؛ كُتِبَت هذه الرسالة باللغةِ اللاتينيَّة، التي كانتْ لغةَ العلمِ في أوروبا في ذلك الوقت، بعنوان:

"De Origine et Composition Suraram Quranicarum Ipsiusque Qorani" (1856)

(أصل وتكوين سور القرآن)، وفي العام التالي (1858)، شارك في مسابقة «أكاديميَّة باريس»، التي أعلنت عن جائزة لبحث يُكتَب في هذا الموضوع، وتقاسمَ هو وشبرنغر وميكيله أماري الجائزة، ممَّا زاد من سمعته في مجال الدراسات الشرقيَّة، وأدَّتْ هذه المسابقةُ أيضاً إلى اختياره للقرآن كعنصر بحثيّ، وبمساعدة تلميذه فريدريك شفالي (1863-1919)، تُرجِمَ عملُهُ إلى الألمانيَّة عام 1860، وهذه الطبعة توسَّع فيها جداً فيما بعد بالتعاون مع تلميذه شفالي، ونُشِرَت تحت عنوان «Geschichte des Qorāns»، حتى أصبح هذا العمل فيما بعد أساساً كبير الأهميَّة

لجميع الدراسات القرآنيَّة في الغرب، وبصفته تلميذاً لهينريش إيوالد[1] (1803-1875)، استفاد نولدكه من تدريب سليم في فقه اللغة الشرقيَّة واللغويَّات والتاريخ، وقد أسهم كلّ ذلك في أن يصبحَ نولدكه أشهر عالم شرقيّ في القيصريَّة الألمانيَّة (الرايخ الألمانيّ الثاني) بين أبناء جيله، ومع أنَّه زار لايدن وإنكلترا، وفيينا التي درس فيها مخطوطات مكتبة فيينا، واهتمَّ بإتقان اللغتين الفارسيَّة والتركيَّة هناك، وبقراءة الشعراء الفرس، ولا سيّما سعدي وعطار، إلا أنَّه لم يذهبْ مطلقاً إلى بلاد عربيَّة وإسلاميَّة، رغم أنَّ تخصصه وعمله إجمالاً يتعلَّق بلغات هذه البلاد وآدابها وتاريخها.

كتبَ نولدكه 24 عملاً مسجلاً في شكل كتب، تتناول الإسلام والأدب والثقافة الشرقيَّة، وتاريخ أدب العهد القديم، بما في ذلك حياة محمَّد (1863)، ومساهمات في معرفة شعر العرب القدماء (1864)، وأدب العهد القديم (1868)، وتحقيقات في نقد العهد القديم (1869)، وبالإضافة إلى كتبه، كتب العديد من المقالات، أكثر من 700 مقال، تشمل المقالات المنشورة، وكذلك تلك التي ما تزالُ متاحةً في شكلٍ ملاحظات.

على الرغم من أنَّ العديدَ من المستشرقين قدَّموا إسهاماتٍ عظيمة في دراسة التسلسل الزمنيّ للقرآن، إلا أنَّ أعظمَها في هذا المجال كان

---

(1) تنبثق أفكار إيوالد حول التاريخ اللغوي من كتابه: «Sprachwissenschaftliche»، (غوتينغن: ديتريش 1861).

«Geschichte des Qorāns» لنولدكه، وفيه استندَ إلى تقسيمِ السور التي نزلتْ في مكّة [في وقت مبكر من حياة النبيّ محمّد] والمدينة، لكنّه قسّم السور المكيّة ثلاث مراحل، لذلك نجدُ فقراتٍ شعريَّة في السنوات المكيَّة الأولى، ومقاطع نثريَّة طويلة في سنوات المدينة اللاحقة، وتحديد الخصائص الأسلوبيَّة في كلّ مرحلة، كمحاولة لتسهيل دراسة القرآن على المستشرقين الغربيين.

إنَّ التسلسلَ الزمنيَّ للقرآنِ عند نولدكه يختلف عن طريقة السير وليم موير[1]، في عمليه «القرآن نظمه وتعاليمه»، و«حياة محمَّد»، فقد طبَّق موير نظريَّةَ المراحل الست على الترتيب الزمنيّ للقرآن، ومع أنَّ هذا النهجَ الكرونولوجيَّ الغربيَّ لبناءِ النص القرآنيّ ارتبط بمفهوم التطور الداخليّ التدريجيّ للوعي النبويّ وظهور حياته السياسيَّة، فقد تمت صياغته على أساس طريقتين للتحليل: الأولى للمقاطع القرآنيَّة ذات الصلة، بشكل نقديّ للأحداث التاريخيَّة المعروفة من الأدب خارج القرآن، والثانية تختصُ بما يتمُّ تحليله بشكلٍ منهجيٍّ وفقاً للطبيعة اللغويَّة والأسلوبيَّة للنص العربيّ للقرآن.

لقد بدأتْ جهودُ المستشرقين الفعليَّة للكشفِ عن إعادةِ الترتيبِ الزمنيّ الأصليّ للنص الإسلاميّ المقدَّس في منتصف القرن التاسع عشر؛

(1) موير، «القُرآن: نظمه وتعاليمه وشهادته للكُتب المُقَدَّسة»، ترجمة مالك مسلماني، صادر عن المركز الأكاديمي للأبحاث، 2023.

إذ نجد غوستاف فايل (1808 – 1889)، المستشرق الألمانيّ الذي سافر إلى القاهرة، حيث عُيّنَ مدرساً للغة الفرنسيَّة في كليَّة الطب المصريَّة، والذي درس مع علماء اللغة العربيَّة مثل محمَّد عياد الطنطاوي، وبعد عودته إلى ألمانيا في عام 1837، ترجم «ألف ليلة وليلة»، وهي أوَّل ترجمة كاملة من النص الأصليّ إلى الألمانيَّة (4 مجلدات، 1837–1841)، وقدَّم كتاب «Mohammed der prophet» (شتوتغارت، 1843)؛ إذ كان أوَّل من عاد إلى أقدم المصادر التي يمكن الوصول إليها في أوروبا، وقد شارك ويل أساليب أبراهام غايغر في تطبيق أدوات النقد التوراتيّ على نصّ القرآن، لكن في حين استخدم غايغر النص الإسلاميّ المقدَّس لإظهار أنَّ النبيَّ (محمَّداً) اشتقَّ تعاليمه من مصادر يهوديَّة، وضعَ ويل النص القرآنيَّ في سياق أوسع للتاريخ النصيّ العربيّ اليهوديّ والمسيحيّ قبل الإسلام، ولم يغادرْ غايغر أوروبا أبداً، فقد اكتُسِبتْ معرفته باللغة العربيَّة والإسلام من خلال الكتب، بينما أمضى ويل خمس سنوات تقريباً في الدراسة في البلاد العربيَّة، وكانت النتيجةُ معرفةً عميقةً باللغة والنصوص الأساسيَّة للإسلام والانفصال عن الجدل الأوروبيّ السابق حول النبيّ محمَّد.

كان ويل، في أربعينيات القرن التاسع عشر، أوَّلَ من تناول التقسيم الإسلاميّ للقرآن إلى السور المكيَّة والمدنيَّة[1]، فقد أعادَ تقييم تأريخ بعضها وحاول ترتيبها في أربع مجموعات كرونولوجيَّة مختلفة (ثلاث في المكيَّة

(1) جون تولان، «Faces of Muhammad»، مطبعة جامعة برينستون، 2019، ص 221.

وواحدة في المدينة)، وهنا يعدُّ الاهتمامُ الدقيقُ بلغةِ السور وعناصرها التركيبيَّة وبنيتها الطريقة الأولى من نوعها في الدراسات الأوروبيَّة، ويمثّل ذلك من نواحٍ عديدة أساس الدراسات القرآنيَّة الأوروبيَّة الحديثة، ومنها تابع نولدكه طريقةَ غوستاف فايل وآراءه منذ ذلك الحين.

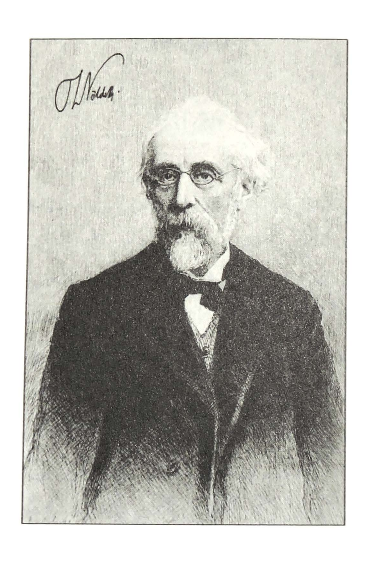
كانتْ المحاولاتُ العربيَّةُ لإعادةِ دراسةِ النصّ القرآنيّ وتفسيره خجولة، وليستْ ذات قيمة لأنَّها أبقتْ على قدسيَّة النص كما فعلَ الراحل محمَّد شحرور، لكن مع إعطاء تفسير لم يلقَ قبولاً من الشارع العربيّ الإسلاميّ، ودورنا كمترجمين في نقل هذه الكتب الكلاسيكيَّة إلى اللغة العربيَّة ما هو إلا بناء لبنة أولى تساعد في تأسيس مراكز بحثيَّة ربَّما تتفوَّق على جميع المدراس الاستشراقيَّة الغربيَّة في دراسة النصوص المقدَّسة، فمن أقدرُ من أبناءِ البيئةِ التي ظهرتْ منها الأديان الإبراهيميَّة، ولا سيّما الإسلام، والذي يختلف عن بقيَّة الأديان السماويَّة بأنَّه دينٌ مرتبطٌ باللغة العربيَّة ارتباطاً بدأ منذ ظهور الإسلام واستمرَّ قروناً عديدة لم يكنْ خلالها يترجم القرآن، إذ كان يشترط لفهم القرآن أن تفهمَ العقليَّة العربيَّة، وهو أمرٌ صعب المنال حتى لو أكمل الأجنبي 10 سنوات أو 30 سنة من عمره في البلاد العربيَّة، وفي ذلك نلاحظ مثالان مهمان لباحثين مشهورين، برنارد لويس الذي يتقن العربيَّة بطلاقة - لهجة شامية - وأرثر جيفري الذي سكن مصر لعقود، إذ نرى مع التعمق ببحوث لويس بوضوح أنَّ كاتبَ البحثِ غيرُ عربيّ أو شرق أوسطيّ، أقصد هنا أنَّه لا يملك أصولاً عربيَّة أو سريانيَّة وغيرها، فلو كان عربيَّاً لكان قادراً بدرجة لا تقارن مع

المستشرقين على فهم الإسلام، والكثير من الأمثلة المعاصرة تؤكد ذلك، منها: المستشرق الألمانيّ لولك، الذي كان مديراً لمعهد غوته في حلب/ سورية، والذي قدَّم دراساتٍ مهمَّة في الأصل السريانيّ للقرآن، لكنَّه لم يبلغْ من حيث الدقة والاستيعاب ما بلغه تلميذه لوكسمبورغ ذو الأصل السريانيّ، السوريّ اللبنانيّ، ومن ناحية أخرى، نجد من يفترض يهوديَّة القرآن في أصله أكثر من سريانيته، والذي تبنَّاه في الأساس، أبراهام غايغر، يقابله الباحث السوريّ الراحل نبيل فياض، والذي قدَّمَ دراساتٍ أعمقَ من غايغر حول الأصل اليهوديّ للقرآن، وهو باحثٌ سوريٌّ عربيٌّ من خلفيَّةٍ مسلمة.

وسيجدُ القارِئُ في هذه الترجمة عناوين فرعيَّة أُدرِجَت لتساعد في آليّة وصول القارئ إلى المعلومة، وبعض تعليقات للمُترجِم بين [ ] أو في الجزء المُخصَّص للحواشي بعد إشارة *؛ لِتفسِّرَ وتشرحَ بعضَ المُصطلَحات والعبارات المُبهَمة فقط، فضلاً عن الاستعانةِ بآياتِ القرآن تلافياً للاقتباسِ الجزئيّ إنْ وُجِدَ في النصّ الأصل، كي تعمَّ الفائدةُ معَ رؤيةٍ أعمقَ في النَّصّ المُترجَم لدى القارِئ.

هشام شامية

2023



ثيودور نولدكه، (1836 - 1930).

الفصلُ الأوّل

القرآن(1)

إنَّ القرآنَ هو أساسُ الإسلامِ لكلّ الذين يرونه كلمةَ الله المباشرة، وهو الكتاب المقدَّس لأكثر من مائة مليون من الرجال، ينتمي بعضهم إلى أمم ذات حضارة موغلة في القدم، وبما أنَّ استخدامَ القرآنِ في العبادة العامَّة، في المدارس وغيرها، هو أكثر شمولاً من قراءة الكتاب المقدَّس في معظم البلدان المسيحيَّة على سبيل المثال، فقد وصف بحقّ أنَّه الكتابُ الأكثر قراءة في الوجود، ويكفي هذا الظرف وحده لإعطائه حاجة ملحة لاهتمامنا، سواء أكانتْ تناسب ذوقنا وتنسجم مع آرائنا الدينيَّة والفلسفيَّة أم لا، وإلى جانب ذلك، فهو عمل محمَّد، ومن ثم يكون مهيَّأً لتقديم دليل على التطور الروحيّ لأكثر الأنبياء والشخصيَّات الدينيَّة نجاحاً، ويجب الاعتراف أنَّ أوَّلَ تصفحٍ للقرآن يترك انطباعاً لدى الأوروبيّ بارتباك فوضَويّ، لا لكون الكتابُ ضخماً جداً، فهو ليس أكبر حجماً من نصوص العهد الجديد، ولا يمكن تعديل هذا الانطباع إلى حدّ ما إلا من خلال

(1) نُشر في الأصل في «Encyclopædia Britannica»، الطبعة التاسعة.

تطبيق التحليل النقديّ بمساعدة الروايات العربيَّة.

بالنسبة إلى عقيدة المسلمين، فإنَّ القرآنَ كما سبق أن قيل هو كلام الله، وهذا هو الادعاء الذي يقدّمه الكتاب نفسه أيضاً، باستثناء سورة الفاتحة؛ وهي صلاة للرجال، وبعض المقاطع القليلة التي يتحدَّث فيها محمَّد (سورة الأنعام: الآيات 104، 114، وسورة النمل: الآية 91، وسورة الشورى: الآية 10)، أو الملائكة (سورة الكهف: الآية 65، وسورة الصافات: الآية 164 وما يليها)، بصيغة المتكلم من دون تدخل صيغة الأمر المعتادة «قل» (مفردة أو جمعاً)، إذ يكون المتكلم هو الله طوال الوقت، إمَّا في صيغة المتكلم المفرد، وإمَّا الأكثر شيوعاً في صيغة الجمع «نَحْن»، فإنَّ أسلوبَ الخطابِ نفسه مألوف لنا من خلال أنبياء العهد القديم؛ إذ تختفي شخصيَّةُ الإنسانِ خلف الله في لحظة الإلهام التي تمتلئ به، لكن جميع الأنبياء العبرانيين العظام سرعان ما يتراجعون إلى الإنسان المتواضع في «أنا»، بينما «أنا» الإلهيَّة في القرآن هي الأنموذج النمطيّ لصيغة الخطاب، ومع ذلك شعر محمَّد أنَّه أداة الله، وكان هذا الوعي بلا شك أكثر سطوعاً في أوَّل ظهور له ممَّا أصبح عليه لاحقاً، لكنَّه لم يتخلَّ عنه ألبتة، لذلك قد نعذره عن طيب نفس لأنَّه لم يقدّمْ نتائج الإثارة التخيليَّة والعاطفيَّة فحسب، بل العديد من الشروحات أو الأحكام التي كانتْ محصلةً لحسبة دقيقة مثل كلمة الله، لو أنَّه تحلَّى فقط بالسمو الأخلاقيّ الخالص الذي يغمرنا في إشعياء أو إرميا بالإعجاب بعد مضي العصور.

لقد شُرِحَتْ مسوّغات الوحي في القرآن نفسه على النحو الآتي: إنَّ النصَّ الأصليَّ في السماء («أُمِّ الْكِتَابِ»، سورة الزخرف: الآية 4؛ و«كِتَاب مَّكْنُون»، سورة الواقعة: الآية 78؛ و«لَوْح مَّحْفُوظ»، سورة البروج: الآية 22)، من خلال عمليَّة «تنزيل»، أُبلغ قطعة تلو الأخرى إلى النبي، وكان الوسيطُ ملاكاً، دعي بـ«الرُّوح» (سورة الشعراء، الآية 193) أحياناً، وبالـ«رُوحُ ٱلْقُدُس» (سورة النحل، الآية 102) في أحيان أخرى، وبـ«جِبْرِيلَ» (سورة البقرة، الآية 97) في وقت لاحق؛ يملي هذا الملاك الوحي على النبي، الذي يردده من بعده، ومن ثم يعلنه للعالم (سورة الأعلى، الآية 6، ...)، ومن الواضح أنَّ لدينا هنا محاولة غير ناضجة بعض الشيء من النبي ليمثل لنفسه العمليَّة اللاواعية بصورة أو بأخرى، والتي نشأتْ أفكاره من خلالها وتبلورت تدريجيَّاً في ذهنه، ولا عجب إذا كانتْ التفاصيلُ في مثل هذه الصور المشوشة ليستْ دوماً متسقة مع ذاتها، حين يقال ـ على سبيل المثال ـ إنَّ هذا الأنموذجَ البدائيّ السماويّ في «صُحُفٍ» مُّكَرَّمَةٍ (سورة عبس، الآية 13 وما يليها)، ويبدو انتقالاً إلى مجموعة مختلفة تماماً من الأفكار، أي كُتب القدر، أو سجل لجميع الأعمال البشريَّة؛ المفاهيم التي توجد فعلاً في القرآن، ويجب أن نلاحظ ـ في جميع الأحوال ـ أنَّ فكرةَ محمَّد التَّصَوُّرِيّة عن الله، بصفته مُتَعالياً فوق العالم كليَّاً، تستبعد فكرة الاتصال المباشر بين النبيّ والله.

وفي بيان صريح من القرآن أنَّ الكتابَ المقدَّس [أي القرآن] «أنزل» من قِبل الله، ليس جُملة واحدة، بل مجزّأً وتدريجيَّاً (سورة الفرقان: الآية

32)، يتضح ذلك من أسلوب التأليف الحاليّ للكتاب، الذي أكدته الروايات الإسلاميَّة، بما معناه أنَّ محمَّداً نشر ما أوحي له في صحف متطايرة أكبر أو أصغر حجماً، وكانت القطعةُ الواحدةُ من هذا النوع تسمى، مثل المجموعة بأكملها، قرآناً؛ أي «قراءة»، أو بالأحرى «تلاوة»؛ أو «كتاباً»؛ أو سورة («súra»، وهي الكلمة العبريَّة المتأخرة «shúrá»، وتعني حرفيّاً: «سلسلة»)، وقد أصبحتْ السورة، في حياة محمَّد، التسمية الاعتياديَّة للأقسام الفرديَّة التي تتميز عن المجموعة بأكملها، وبناءً عليه أمستْ الاسمَ الذي أُطلق على الفصول المنفصلة في القرآن الحاليّ، هذه الفصول غير متساوية الطول، ونظراً لأنَّ العديدَ من السور الأقصر مكتملة بذاتها بلا شك، فمن الطبيعيّ أن نفترضَ أنَّ السورَ الأطول، والتي تكون في بعض الأحيان شاملة للغاية، قد نشأتْ من اندماج العديد من آيات الوحي المختلفة في الأصل، يدعم هذا الافتراض الروايات العديدة التي تعطينا الظروف التي نُزّلتْ فيها هذه القطعة القصيرة أو تلك، المندمجة الآن في قسم أكبر، ومن خلال حقيقة أنَّ ارتباط الفكرة في السور الحالية غالباً ما يبدو متقطعاً، ويجب في الواقع قصّ العديد من الأجزاء الطويلة بوصفها قطعاً مستقلة في الأصل، وحتى في الأجزاء القصيرة من السور، كثيراً ما يتم العثور على أجزاء لا يمكن أن تكونَ موجودة في البداية.

وفي الوقت نفسه، يجب أن نكونَ حريصين على عدم المبالغة في إجراء هذه الغربلة ـ كما أعتقد الآن أنَّني فعلتُ ذلك في أعمالي السابقة ـ كما يبدو أنَّ شبرنغر أحياناً قد فعل ذلك أيضاً في كتابه العظيم (حول محمَّد).

الواضح أنَّ بعضَ السور كانت طويلةً جداً منذ البداية على سبيل المثال: سورة يوسف التي تحتوي على مقدّمة قصيرة، ثم حكاية يوسف، ثم بعض الملاحظات الختاميَّة، بالتالي فهي متجانسة تماماً، وبالطريقة نفسها، فإنَّ سورة طه، التي تنشغل أساساً بحكاية موسى، تشكل وحدةً متكاملةً في حدّ ذاتها، ينطبق الشيء نفسه على سورة الكهف، التي تبدو للوهلة الأولى أنَّها تندرج في عدَّة قطع؛ قصة النائمين السبعة (أصحاب الكهف)، والرواية غير المتجانسة حول موسى، وتلك المتعلقة بالإسكندر «ذي القرنين»، كلّها مرتبطة بعضها ببعض، والقافية نفسها تمرّ عبر السورة بأكملها، وقد نلحظ حتى في السرديَّات المنفصلة مدى سهولة انتقال القرآن من موضوع إلى آخر، ومدى ضآلة الاهتمام بالتعبير عن جميع تحولات الفِكر، ومدى تكرار حذف الجمل، التي تكاد تكون ضروريَّة، بناءً عليه لسنا أحراراً في كلّ حالة يكون فيها الارتباط في القرآن غامضاً لنقول إنَّه متقطع حقاً، ونضعه جانباً على أنَّه ترقيع غير ملائم بخط مختلف في وقت لاحق، حتى في الشعر العربيّ القديم، فإنَّ مثلَ هذه التحولات المفاجئة متكررة الحدوث، وليس من غير المألوف للقرآن، بعد إدخال موضوع جديد، أن يعودَ تدريجيّاً أو فجأة إلى الموضوع السابق؛ دليلٌ على أنَّ هناك على الأقل تَقَطّعاً لا يمكن التفكير فيه، باختصار حتى إن كان القرآن قد نُقّح بطريقة منقوصة أو غير كاملة، فإنَّ السورَ الحاليَّة في معظم الحالات تتطابقُ مع النسخ الأصليَّة.

إنَّ كيفيَّةَ نشوء آيات الوحي هذه في عقل محمَّد مسألة تكاد تكون

مناقشتها عديمة الفائدة تماماً مثل ما سيكون عليه تحليل طريقة عمل عقل الشاعر، وفي حياته المهنيَّة المبكرة، ربَّما أحياناً في مراحلها اللاحقة أيضاً، لا بدَّ أنَّ العديدَ من آيات الوحي قد تَدَفَّقَتْ منه في اهتِياج لا يمكن ضبطه، فلم يكنْ بإمكانه النظر إليها إلا بوصفها إلهاماً إلهيّاً، وينبغي ألا يغيب عن ذهننا أنَّه لم يكنْ مفكراً منهجيّاً موضوعيّاً، بل كان صاحب رؤية من بلاد المشرق، ترعرع في وسط معتقد خرافيّ مطبق، ومن دون انضباط فكريّ، رجل تأثر مزاجه العصبيّ بقوّة من خلال التقشف الزاهد، وكان منزعجاً بدرجة أكبر من المعارضة التي واجهها؛ لأنَّ البطوليَّة قليلة في شخصيته؛ إذ كان مملوءاً بأفكاره ورؤاه الدينيَّة، قد يتخيَّل أنَّه سمع الملاك يأمره بتلاوة ما قيل له، ربّما يكون هناك الكثير من آيات الوحي من هذا النوع الذي لم يسمعْ به أحد إلا هو نفسه؛ إذ ردّده لنفسه في صمت الليل («إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلا» سورة المزمل: الآية 6)، ويعترف القرآن نفسه أنَّه نسي بعض ما أوحي إليه («سَنُقْرِؤُكَ فَلا تَنسَى»، سورة الأعلى: 6)، إلا أنَّ الجزءَ الأكبرَ من الكتاب حتى الآن هو بلا شك نتيجةُ التداولِ والتشاور، ومتأثر بدرجة قد تزيد أو تقلّ بالعواطف، ومحرّك بخطاب بلاغيّ معيّن بدلاً من حماسة شعريَّة.

إنَّ العديدَ من المقاطعِ مبنيَّةٌ على تأملٍ فكريّ بحت، ويُقال إنَّ محمَّداً نطقَ أحياناً بمقطعٍ مثل هذا فوراً بعد إحدى نوبات الصرع التي لم يعدّها أتباعه بوصفها رموزَ اِتصالٍ مع القوى العليا فحسب، بل هو أيضاً (لبعض الوقت على الأقلّ)، وإذا كان الأمرُ كذلك، فمن المستحيل

القول إذا كانتْ الحيلةُ في النطق بآيات الوحي أم في النوبة نفسها.

لا يُعرَفُ بالضبط كيفَ اتَّخذَتْ أجزاءُ القرآن المختلفة شكلاً أدبيّاً؛ إذ إنَّ محمَّداً نفسه، بقدر ما يمكننا اكتشافه، لم يكتبْ أيَّ شيء، إنَّ مسألةَ إمكانيَّة القراءة والكتابة نُوقِشَت كثيراً بين المسلمين، للأسف من خلال مناقشة الحجج العقائديَّة والتقاليد الزائفة أكثر من الأدلة الموثوقة، ويميل المرء الآن إلى القول إنَّه لم يكن جاهلاً تماماً بهذه الفنون، لكن بسبب نقص الممارسة وجد أنَّه من الملائم توظيف شخص آخر كلّما كان لديه أيّ شيء يكتبه، وبعد الهجرة إلى المدينة (622 م.) قيل لنا إنَّ قطعاً قصيرة - أحكاماً قانونيَّة بالدرجة الأولى - دوّنَتْ فور الكشف عنها من تابعٍ استدعاه لهذا الغرض، حتى لا يقف أيّ شيء في طريق نشرها، ومن ثم من المحتمل أنَّه بدأ بتدوين رؤاه في مكَّة، كما هو الحال في مدينة التّجارية/ مركنتيلية*، حيث كان فنُّ الكتابةِ أكثر شيوعاً ممَّا هو عليه في المدينة، وهي مكان زراعيّ، حتى أنَّه يمكن الاستدلال بأمان على وجود الأجزاء الطويلة من القرآن بصيغة مكتوبة منذ وقت مبكر من خلال مؤشرات مختلفة، ولا سيّما حقيقة أنَّ النبيَّ في مكَّة تسبَّب في إدخال إضافات ومحو أجزاء من آياته السابقة، فلا نستطيع الافتراض أنَّه عرفَ السور الأطول عن ظهر قلب تماماً لدرجة تمكنه بعد وقت من معرفة أيّ مقطع معيَّن، ربَّما

---

* مركنتيلية/ Mercantile: سياسة اقتصاديَّة مصمَّمة لتعظيم الصادرات وتقليل الواردات للاقتصاد من خلال نزعة للمتاجرة من غير اهتمام بأيّ شيء آخر. (تعليق المترجم)

يكون قد اتّكل على ذاكرته كثيراً في بعض الحالات، فمثلاً يبدو أنّه كان يملي أحياناً نفس السورة على أشخاص مختلفين بعبارات مختلفة قليلاً، وفي مثل تلك الحالات من الممكن أنّه كان ينوي جزئيّاً إدخال تصويبات، وطالما كان الاختلاف في التعبير فقط، من دون أن يؤثّرَ على المعنى، فلن يتسبَّبَ ذلك في إرباك أتباعه؛ إذ لم يكنْ لأحد منهم تحذلق أدبيّ كافٍ للتشكيك في اتساق آيات الوحي الإلهيّ على ذلك الأساس، ومع ذلك، كان الاختلافُ في حالات معيَّنة في القراءة مهمّاً للغاية لدرجة لا يمكن التغاضي عنه، ونتيجة لذلك يعترف القرآن نفسه أنَّ الكفّارَ صاغوها على أنَّها عتابٌ على النبيّ أنَّ الله استبدل آية مكان آية أخرى أحياناً (سورة النحل: الآية 101).

في إحدى المناسبات، حين نشأ جدالٌ بين اثنين من أتباعه حول القراءة الصحيحة لمقطع تلقاه كلاهما من النبيّ نفسه، قيل إنَّ محمَّداً أوضح أنَّ القرآنَ نزلَ في سبع قراءات، وفي هذا القول الفصل، الذي ربَّما يكون أصيلاً، تعني «سبع» كما في كثير من الحالات الأخرى عدداً غير محدَّد لكن محدود، إلا أنَّ المرءَ قد يتخيَّل الجهدَ الذي بذله علماء الدين المسلمون لتفسير الحديث بما يتوافق مع معتقداتهم الدوغماتيَّة، ويُوجَد حالياً عدد كبير من التفسيرات، يدّعي بعضها مرجعيته إلى النبيّ نفسه، حيث تؤدي الأحاديث المكذوبة عن محمَّد دوراً بارزاً في تفسير القرآن، وأحد التفسيرات المفضلة للغاية، لكن يتعذر إثباتها تماماً أنَّ «الصيغ السبع» هي سبع لهجات عربيَّة مختلفة.

حين عَلِمَ محمَّد بهذه التناقضات كانتْ رغبته من دون شك في تصنيف نصّ واحد فقط من بين النصوص المتناقضة بوصفه نصّاً أصليّاً، إلا أنَّه لم يبذلْ الكثير من الجهد لتحقيق رغبته، ومع أنَّه كان من الناحية النظريَّة مؤيداً للإلهام الشفاهي، إلا أنَّه لم يدفعْ بالعقيدة إلى نتائجها القصوى، ولم يأخذْ حسّه العمليّ الجيّد هذه الأمور بدقّة مثل علماء الدين في القرون اللاحقة، لكنَّه كان يحذف مقاطعَ أو آيات كاملة أحياناً، ويأمر أتباعه بمحوها أو نسيانها، معلناً أنَّها «منسوخة»، ومن أبرز الحالات هي حالة الآيتين في سورة النجم، حين تعرّف إلى ثلاثة آلهة وثنيَّة بوصفها كائنات سامية لها تأثير على الله، وهذا ما فعله في لحظة ضعف لكسب أبناء بلده بحلّ وسط مع إبقاء الله في المرتبة الأعلى، لقد حقَّق هدفه فعلاً، لكن سرعان ما زاره الندم، وصرح أنَّ الكلمات المعنية كانت من إيحاء إبليس.

يكفي هذا القدر فيما يتعلَّق بالقراءات المنسوخة، وتختلف المسألة إلى حدّ ما حين نأتي إلى إلغاء القوانين والإرشادات للمسلمين، التي كثيراً ما تَرِدُ في القرآن، ولا يوجد في ذلك ما يتعارض مع فكرة محمَّد عن الله، فالله بالنسبة له حاكمٌ مطلق، فهو يبيّن إن كان أمرٌ ما صحيحاً أو خاطئاً من دون وجود ضرورة متأصلة بل من خلال قراره التعسفي.

إنَّ هذا الإله يغير أوامره حسب رغبته، ويضع شريعة للمسيحيين، وأخرى لليهود، وثالثة للمسلمين، لا بل يغير تعليماته للمسلمين متى

يشاء، إذ نجد على سبيل المثال أنَّ القرآن يحتوي على توجيهات مختلفة للغاية، تتناسب مع ظروف متغايرة، فيما يتعلَّق بالمعاملة التي يجب أن يتلقاها الوثنيون على أيدي المؤمنين، لكن محمّد لم يبد أيّ قلق من إلغاء هذه التشريعات المستبدلة، إذ لا يمكن أن يكونَ المؤمنون غير متأكدين بشأن أيّ من الفقرتين المتناقضتين بقيت سارية المفعول، وربَّما ما يزال بإمكانهم البحث عن الهدى في تلك التي عفا عليها الزمن، وما لم يخطرْ في بال محمَّد أنَّ تلك الأجيال اللاحقة قد لا تميز بسهولة «المنسوخ» من «الناسخ»، الذي قلّما امتدَّت رؤيته، بدرجة كافية طبعاً، إلى مستقبل جماعته الدينيَّة.

ذُكِرَتْ الأحداثُ الجاريةُ باستمرار في آيات الوحي، ففي المدينة، نالتْ إعجاب المؤمنين لملاحظة عدد المرات التي أعطاهم الله فيها الإجابة على سؤال مطلوب البتّ فيه عاجلاً في ذلك الوقت، وتظهر نفس السذاجة في ملاحظة للخليفة عثمان حول قضيَّة مشكوك فيها: لو أنَّ رسول الله كان حيَّاً، لنزل قرآنٌ فيها. ليس من غير المألوف أن تتطابقَ الكلمةُ الإلهيَّةُ مع النصيحة التي تلقاها محمَّد من أكثر أصحابه قرباً، تقول إحدى الروايات: «كان عمر يرى الرأي»، «فينزل به القرآن».

قصصُ الأنبياء والقديسين:

إنَّ محتوياتِ القرآن متنوعةٌ للغاية، وتتألفُ العديدُ من المقاطع من تأملات دينيَّة أو أخلاقيَّة، تُذكِّر فيها بعظمةِ الله وصلاحه وبرّه مثل ما تجلّى ذلك في الطبيعة والتاريخ وما نزل على الأنبياء من الوحي، ولاسيَّما محمد، وعُظِّمَ الله بوصفه الواحدَ القدير، وأُدينت بلا هوادة عبادة الأصنام وكلّ تأليه للكائنات المخلوقة، مثل: عبادة المسيح بوصفه ابن الله، تُصوَّر مسراتُ الجنة وعذابات جهنم في صور حسيَّة نابضة بالحياة، كذلك رعب الخليقة بأسرها عند قدوم اليوم الأخير ودينونة العالم، يتلقى المؤمنون تعليمات أخلاقيَّة عامَّة، فضلاً عن توجيهات لظروف معيَّنة، توبِّخُ الجاحدين، وتهدّد الأعداء بعقوبات رهيبة، زمنيَّة وأبديَّة، وتكون حقيقة الإسلام معلنة للمتشككين، وتسود طريقة عرض معيَّنة لكن ليستْ مقنعة، ويندرج الكتاب المقدَّس في العديد من المقاطع في أسلوب الوعظ المنتشر، ويبدو البعض الآخر أشبه بالتصريحات أو المراسيم العامَّة. يحتوي عددٌ كبير من المقاطع على قوانين شعائريَّة أو مدنيَّة، أو حتى أوامر خاصَّة موجَّهة للأفراد وصولاً إلى أمور مثل تنظيم حريم محمَّد، وفي عدد ليس بالقليل، يتم الردّ على أسئلة محدَّدة طُرِحت على النبيّ من المؤمنين أو الكفار، ويتلقى محمَّد نفسه أوامر مباشرة على نحو متواتر أيضاً، ولا يفلت من التوبيخ بين الحين والآخر، إحدى السور (سورة الفاتحة) هي صلاة، واثنتان (الفلق، الناس) هما صيغتان سحريتان؛ إذ يتناول عددٌ كبير من السور موضوعاً واحداً، بينما تتضمن سور أخرى

عدة مواضيع.

يجبُ أن نختارَ قصص الأنبياء والقديسين القدامى من بين المواد التي يشتمل عليها القرآن ـ والتفسير الذي قدّمناه بعيد كلّ البعد أن يكونَ شاملاً ـ لأنَّها مثيرة للاهتمام على نحو خاص، والغرض من محمَّد هو أن يظهر من هذه التواريخ كيف كافأ الله الصالحين وعاقب أعداءهم في الأزمنة السابقة، أمَّا بالنسبة للجزء الأكبر، فلا يعمل الأنبياء القدامى إلا على إدخال القليل من التنوع من حيث الشكل، وهي في كلّ حالة تقريباً نسخ طبق الأصل عن محمَّد نفسه، إذ يعظون مثله تماماً، وعليهم أن يوجّهوا التهم ذاتها إلى خصومهم، الذين يتصرفون بدورهم تماماً مثل غير المؤمنين من سكان مكة، بل يذهب القرآن أبعد من ذلك إلى حدّ أنّه جعل نوح يعارض عبادة بعض الآلهة الباطلة، المذكورة بالاسم، التي عبدها العرب في زمن محمَّد، وفي الخطاب الذي وضع في فم إبراهيم (سورة الشعراء: الآية 75 وما يليها)، ينسى القارئ تماماً أنَّ إبراهيم هو المتحدث، وليس محمَّداً (أو الله نفسه)، وخصّصت روايات أخرى للترفيه، مع أنَّها دوماً ما تكون منكّهة جيداً بعبارات بناءة، ولا عجب أنَّ القرشيين الملحدين لم يجدوا هذه القصص القرآنيَّة مسلية مثل قصص رستم وإسبانديار، التي رواها نضر بن حارث، الذي تعلَّم الأساطير البطوليَّة للفرس أثناء سفره كتاجر على نهر الفرات، لكن النبيّ شعر بالمرارة من هذا التنافس لدرجة أنّه حين سقط نادر تحت سلطته بعد معركة بدر أعدمه؛ رغم أنّه في جميع الحالات الأخرى كان يعفو عن أبناء بلده عن طيب خاطر.

تدورُ هذه التواريخ بشكل رئيس حول شخصيَّات الكتاب المقدَّس، ولاسيّما تلك الخاصة بالعهد القديم، لكن الانحرافات عن الروايات الكتابيَّة ملحوظة للغاية، وقد عُثر على العديد من التّغييرات في الحكايات الأسطوريَّة من الأغاداه اليهوديَّة والأناجيل المنحولة، لكن الكثير منها يرجع إلى مفاهيم خاطئة مثل أن المستمع فقط (وليس قارئ الكتاب) يمكن أن يقع فريسة لها.

لم يكنْ من الممكن لأكثر اليهود جهلاً الخلط بين هامان (خادم أحشويروش) وخادم فرعون، أو مطابقة ميريام أخت موسى مع ماري (= مريم) والدة المسيح، وبالإضافة إلى هذه المفاهيم الخاطئة، توجد تعديلات اعتباطيَّة متنوعة، بعضها متناقض للغاية، وتتعلّق بمحمَّد نفسه، على سبيل المثال: بناء على جهله بأيّ شيء خارج المنطقة العربيَّة، جعل خصوبة مصر ـ حيث نادراً ما يُرى المطر ويكاد لا يُفتقد ـ تعتمد على المطر بدلاً من فيضانات النيل (سورة يوسف: الآية 49)، وتعكس الحكاية الغريبة لـ «ذي الْقَرْنَيْنِ» (أي الإسكندر الأكبر، سورة الكهف: الآية 96 وما يليها)، كما تم اكتشافها مؤخراً، قصة سخيفة إلى حدّ ما كتبها أحد السوريين في بداية القرن السادس، قد نعتقد أنَّ جوهرها كان مرتبطاً بالنبيّ من خلال بعض المسيحيين، وإلى جانب المحفوظات التاريخيَّة اليهوديَّة والمسيحيَّة، يوجد القليل حول الأنبياء العرب القدامى؛ إذ يبدو أنَّه استخدم مواده بحريةٍ أكبر من المواد الأخرى.

سبق أن أعرب عن رأي مفاده أنَّ محمَّداً لم يستفدْ من مصادر مكتوبة، ويمكن دوماً تفسير المصادفات والاختلافات على حدّ سواء من خلال التواصل الشفويّ من اليهود الذين يعرفون القليل والمسيحيين الذين لا يعرفون شيئاً تقريباً، وحتى في المقاطع النادرة حيث يمكننا تتبع أوجه التشابه المباشر مع نص العهد القديم (سورة الأنبياء: الآية 105 مع سفر المزامير ـ الإصحاح 37: 29؛ وسورة الفاتحة: الآية 5 مع سفر المزامير ـ الإصحاح 11) أو العهد الجديد (سورة الأعراف: الآية 48 مع إنجيل لوقا ـ الإصحاح 16: 24؛ و سورة الأحقاف: الآية 19 مع إنجيل لوقا ـ الإصحاح 16: 25)، لا يوجد شيء أكثر ممَّا يمكن أن يلتقطه المرء بسهولة في محادثة مع أيّ يهوديّ أو مسيحيّ، وفي المدينة المنورة، حيث أتيحت له الفرصة للتعرف إلى يهود من بعض الثقافات، تعلم بعض الأشياء من المشناه (على سبيل المثال: تتوافق الآية 35 في سورة المائدة تقريباً كلمة بكلمة مع مشناه سنهدرين 4: 5؛ قارن أيضاً الآية 183 في سورة البقرة مع مشناه بير 1: 2)، وهذه ليست سوى حالات من الاتصال الشفويّ تقبل من أيّ شخص لديه أدنى معرفة بالظروف المحيطة، وإلا فقد نستنتج أنَّ محمَّداً درس التلمود، فمثلاً تنظيم الوضوء عن طريق الاحتكاك بالرمل، حيث لا يمكن الحصول على الماء (الآية 43 في سورة النساء)، يتوافق مع طقس تلمودي (مشناه بير 15a)، أمَّا المسيحيَّة، فقد كان بإمكانه أن يتعلَّم القليل جداً حتى في المدينة المنورة، كما يمكن رؤيته من المحاكاة الساخرة السخيفة لسرّ القربان المُقدّس في سورة المائدة، الآية 112 وما

يليها، وبالنسبة إلى البقية، فمن المستبعد جداً وجود أيّ إنتاج أدبيّ حقيقيّ ـ أيّ شيء يمكن تسميته كتاباً ـ باللغة العربيَّة قبل القرآن.

القوة البلاغيَّة في القرآن:

من حيث الأسلوب والتأثير الفنيّ، فإنَّ لأجزاء مختلفة من القرآن قيمةً غير متكافئة للغاية، إذ سيجد القارئ غير المتحيز والناقد عدداً قليلاً من المقاطع التي تكون فيها مشاعره الجماليَّة راضية تماماً، لكنَّه غالباً ما يُصدم، خاصةً في المقاطع القديمة، بشغف جامح وخيال قويّ، إن لم يكن خصباً، وكثيراً ما تشهد أوصاف الجنة والجحيم والإشارات إلى عمل الله في الطبيعة على قدرٍ معيّن من المَراسة الشعريَّة، وفي أماكن أخرى أيضاً يكون الأسلوبُ حيويَّاً ومثيراً للإعجاب في بعض الأحيان، مع أنَّنا نادراً ما نواجه مثل هذه البساطة المثيرة للمشاعر كما هو الحال في منتصف القرن الثالث عشر.

إنَّ الجزء الأكبر من القرآن نثريٌّ قطعاً، فمعظمه جامد من حيث الأسلوب، ومع مثل هذه المجموعة المتنوعة من المواد، لا يمكننا توقع أن يكون كلّ جزء بنفس القدر من الحيويَّة، أو الخيال، أو الشاعريَّة، ويجب بالضرورة التعبير بالنثر عن حكم بشأن حقّ الميراث، أو مسألة من الشعائر حتى تكون مفهومة، فلا أحد يشكو من القوانين المدنيَّة في سفر الخروج أو طقوس الذبيحة في سفر اللاويين، لأنَّهم يريدون النَّارِ في سفر

أشعياء أو التَّنَعُّمِ في سفر التثنية، لكن خطأ محمَّد يتمثَّل في التمسك بعناد وخنوع بشكل شبه شاعريّ تبناه في البداية وفقاً لذوقه وذوق مستمعيه، فمثلاً يستخدم القافية في التعامل مع أكثر الموضوعات نثريَّة، ممَّا ينتج تأثيراً غير مرغوب فيه للتناقض بين الأسلوب والموضوع، ويجب أن يؤخذَ بالحسبان أنَّ العديد من تلك المقطوعات الوعظيَّة التي تكون رَتِيبة للغاية بالنسبة لنا، خاصةً حين نقرأ مقطعين أو ثلاثة على التوالي (ربما في ترجمة غير ملائمة للغاية)، يجب أن يكونَ لها تأثير مختلف تماماً عند تلاوتها تحت حرارة السماء الملتهبة وعلى تربة مكة القاحلة.

كانتْ الأفكارُ عن عظمة الله وواجب الإنسان، المألوفة لنا منذ الطفولة، كلّها جديدة على المستمعين ـ الذين يجب أن نفكر فيهم أولاً ـ وليس القراء، وفي الوقت نفسه، كان لكلّ تلميح معنى كثيراً ما نفشل في ملاحظته، ولا بدَّ أن يكونَ مشهداً مثيراً لاهتمام العرب، الذين اعتادوا على رؤية ثلاث إلى خمس سنوات تنقضي قبل هطول الأمطار الغزيرة لتكسو البرية مرة أخرى بالمراعي الخصبة، حين تحدَّث محمَّد عن صلاح الرب في خلق الغيوم، وإحضارها فوق الصحراء المقفرة، فتتدفق على الأرض لاستعادة عطائها النباتيّ الغنيّ، إذ يصعبُ علينا تقدير شدَّة هذا الانطباع تحت سمائنا الملبدة بالغيوم.

إنَّ وجودَ العديد من مقتطفات أسلوب الكلام الشاعِرِيّ، ولاسيّما

السور المبكرة، تمكننا من فهم سبب اعتبار المجتمع التجاريّ المفتقر للجمال الشعريّ في مكة لأحد أبناء مدينتهم غريب الأطوار بوصفه «شاعراً» أو حتى «شاعراً ممسوساً»، كان على محمّد نفسه أن يتخلّى عن مثل هذه الألقاب؛ إذ شعر أنَّه نبيّ بوحي إلهي، ولكنّنا سنبرّئه تماماً من العبقريَّة الشعريَّة من وجهة نظرنا، فمثل العديد من الشخصيَّات الأخرى التي يغلب عليها الطابع الدينيّ، لم يكنْ لديه أيّ تقدير للجمال الشعريّ، وإذا كان لنا أن نصدّق حكاية واحدة مرتبطة به، في زمن كان الجميع يؤلفون فيه الشعر، فقد كان يجهل أبسط قواعد علم العروض والقوافي، لذلك فإنَّ أسلوبَ القرآن ليس شعريَّاً بل بلاغيَّاً، وقد اكتُسب التأثير القويّ لبعض الأجزاء علينا بوسائل بلاغيَّة، وعليه فإنَّ الكتابَ المقدَّس ليس له حتى الشكل الفنيّ للشعر، الذي يتضمن بين العرب وزن شعر صارم وقافية.

لم يكنْ القرآنُ مَوْزُوناً عَرُوضِيّاً قط، ولا يقع إلا عدد قليل فقط من المقاطع الفصيحة استثنائيَّاً ضمن تصنيف من الإيقاع العفويّ، ومن ناحية أخرى، يتم الحفاظ على القافية بانتظام، وإن كان ذلك بطريقة غير مرتبة للغاية، ولاسيّما الأجزاء اللاحقة.

لقد كان النثرُ المقفى شكلاً شائعاً للتأليف بين العرب في ذلك الوقت، وقد تبنّاه محمَّد، لكن بينما كان يضفي بريقاً معيَّناً على بعض المقاطع، فإنَّه

يثبت بوجه عام أنَّه حملٌ مثقل، ولاحظ المسلمون أنفسهم أنَّ طغيان القافية غالباً ما يظهر في تشويش ترتيب الكلمات، وفي اختيار صيغ الأفعال التي لم تكن لتستخدم لولا ذلك؛ على سبيل المثال: صِيْغة المُضارع بدلاً من الماضي الناقص، وفي مكان واحد، للحفاظ على القافية، يدعو جَبل سَيْنَاء بـ «سِينِينَ» (سورة التين، الآية 2) بدلا من «سَيْنَاء» (سورة المؤمنون، الآية 20)؛ وفي مكان آخر، يدعو إيليا بـ يَاسِين (سورة الصافات، الآية 130) بدلاً من إِلْيَاس (في سورة الأنعام: الآية 85، وسورة الصافات، الآية 123)، حتى المحتوى يتكيف مع متطلبات القافية، وبالتالي فإنَّ النبيَّ بالكاد كان يثبت على العدد غير المألوف للملائكة الثمانية حول عرش الله (سورة الحاقة، الآية 17) إذا لم تكن كلمة «ثمانية» متناسقة مع القافية، وعندما تتكلم سورة الرحمن عن جنتين سماويتين، فيهما عَيْنَان ومن كلِّ فاكهةٍ زوجان، ومرة أخرى عن جنتين متشابهتين، كلّ هذا ببساطة لأنَّ اللاحقة الدالة على المثنى (ألف ونون) تتوافق مع المقطع الذي يتحكم في القافية في تلك السورة بأكملها، وكثيراً ما يُدرج محمَّد ملاحظات بنّاءة في المقاطع اللاحقة، بعيداً تماماً عن الالتزام بالسياق، فقط لإكمال القافية، فمن السهل جداً في اللغة العربيَّة تكديس طبقات من الكلمات ذات النهاية نفسها، بحيث يكون الإهمال الصارخ للقافية في القرآن أمراً ملحوظاً على نحو مضاعف، قد يقول المرء إنَّ هذه علامة أخرى على حاجة النبيّ إلى التدريب الذهنيّ، وعدم قدرته على النقد الاستِبطاني.

وبالإجمال، حتى لو كانتْ أجزاء كثيرة من القرآن تمتلك بلا شك قوة بلاغيَّة ملحوظة ومؤثرة، حتى على القارئ غير المؤمن، إلا أنَّ الكتابَ من الناحية الجماليَّة ليس بأيّ حال من الأحوال إنجَازاً من الدرجة الأولى، حتى نبدأ بما نحن مؤهلون لنقده، لننظر إلى بعض القصص الأكثر طولاً، فمن الملاحَظ سابقاً مدى حماستها وفُجائيتها في حين يجب أن تتسم بسكينة ملحميَّة، غالباً ما تحذف روابط لا غنى عنها في التعبير وترتيب الأحداث، لذا فإنَّ فهم هذه القصص أسهل بالنسبة لنا ممَّا هو بالنسبة لمن سمعوها أوّل مرّة؛ لأنَّنا نعرف معظمها من مصادر أفضل، يوجد أيضاً قدر كبير من الإسهاب غير الضروريّ، ولا نجد في أيّ مكانٍ تقدماً ثابتاً في السرد.

قابل، في هذا الصدد، «أجمل قصة،» أي قصة يوسف (سورة يوسف)، بنواقصها الصارخة، مع القصة في سفر التكوين، التي صورت ونفذت بشكلٍ مثير للإعجاب بالرغم من وجود بعض التناقضات البسيطة، نَجِدُ أخطاء مشابهة في الأجزاء غير السرديَّة من القرآن.

إنَّ ترابطَ الأفكار مُهلهَل للغاية، بل إنَّ التركيبَ النّحويّ نفسه ينمُّ عن ارتباك كبير، فكثيراً ما ترد تغييرات مفاجئة في بناء الجملة لا يمكن تفسيرها بأنَّها أدوات أدبيَّة واعية، تبدأ الكثير من الجُمَل بلفظة «يَومَ» أو «يومئذ،» والتي تبدو كما لو أنَّها تطفو في الهواء، ممَّا دفع المفسّرين إلى القول

بـ«ربّما» أو شيء مشابه لمثله هذه الانتقالات، كما لا يدلّ استخدام نفس الكلمات والعبارات بشكل متواتر ومن دون داع على مهارة أدبيَّة عظيمة؛ في سورة الكهف على سبيل المثال يظهر تعبير «حَتَّى إِذَا» ما لا يقلّ عن ثماني مرات. باختصار، إنَّ محمَّداً غيرُ بارع في الأسلوب بأيّ حال من الأحوال، سيؤيد وجهة النظر هذه أيّ أوربيّ يقرأ الكتاب بعقل متفتح وبعض المعرفة باللغة، من دون الأخذ بالحسبان التأثير الممل لتكراراته التي لا تنتهي، إلا أنَّ حُكماً كهذا سيبدو في مسامع أيّ مسلمٍ تقي صادماً كما لو كان شركاً أو إلحاداً صريحاً، فلطالما نظر المسلمون إلى القرآن على أنَّه النموذج الأكمل في الأسلوب واللغة، خاصيته هذه في عقيدتهم هي أعظم المعجزات، والدليل القاطع على مصدره الإلهيّ، ربَّما تذهلنا مثل هذه النظرة من رجال يعرفون العربيَّة بشكل أفضل ممَّا قد يتمكن من فعله أبرع مستعرب أوربيّ.

إنَّ القرآنَ يتحدَّى بشجاعة خصومه أن يأتوا بعشر سورٍ، أو حتى واحدة، مثل تلك التي في الكتاب المقدَّس، ولم يفعلوا ذلك أبداً، من المؤكد عند التفكر بهدوء أنَّ ذلك ليس مفاجئاً للغاية، إنَّ آياتٍ كالتي كان ينطق بها محمَّد، ما كان لغير مؤمن أن يأتي بها من دون أن يجعلَ من نفسه أضحوكة، وعلى الرغم من قلة الأصالة الحقيقيَّة في تعاليم محمَّد، إلا أنَّه كان أصيلاً تماماً مقارنة بأبناء وطنه حتى في صياغة وحيه؛ إذ إنَّ تأليف مثل هذه الآيات متى شاء كان أمراً يفوق قدرة أكثر الأدباء خبرة، فقد

كان الأمرُ يتطلّب إمَّا نبيّاً وإمَّا محتالاً وقحاً، وإن ظهرتْ شخصيَّة مثل تلك فعلاً بعد محمَّد، فلا يمكن إلا أن يكونَ مقلّداً، مثل الأنبياء الكاذبين الذين ظهروا خلال فترة موته وما بعدها، وأن ينتج الخصوم أيّ عينة مهما كانت من الشعر أو الخطابة مساوية للقرآن أمر لا يرغب به النبيّ إطلاقاً، وفي هذه الحالة، كان سيخجل حتى في نظر العديد من أتباعه من القصيدة الأولى التي تصل لمتناول اليد، إلا أنَّ مثلَ هذا التفسير الخاطئ لهذا التحدي ما استندت إليه عقيدة إعجاز القرآن في أسلوب واختيار الألفاظ في القرآن، أمَّا الباقي فقد أنجزته العصبيَّة الدينيَّة، القادرة على إحداث معجزات أخرى إضافة إلى تحويل إنتاج أدبيّ غير سوي إلى تحفة منقطعة النظير في أعين المؤمنين، وبعد قبول هذا الرأي، كانت الخطوة التالية العثور في كلّ مكان على دليلٍ لكمال الأسلوب واللغة، وإن كان قد وجد بين المسلمين القدامى عاشق للشعر ـ وهو ما لا يمكن للمرء أن يشك فيه ـ واجه صعوبات في تقبل هذه العقيدة، لكان عليه الحذر من التصريح برأي قد يكلفه رأسه، إنَّنا نعرف بفقيه عقلانيّ واحد على الأقل تحدّى العقيدة بطريقة يمكننا أن نرى أنَّه لم يكنْ يؤمن بها (الشهرستاني، ص 39)، في الحقيقة لو أنَّ أسلوبَ القرآن كان كاملاً لأمكن أن يكون معجزة حقاً؛ لأنَّه بالرغم وجود أسلوب شعريّ معترف به وقتذاك، والذي يُكاد ينحدر إلى التّصنع، إلا أنَّ أسلوب النثر لم يكن موجوداً.

كل البدايات صعبة، ولا يمكن تحميل تهمة خطيرة ضدّ محمَّد لأنَّ

كتابه أوّل عملٍ نثريّ رفيع المستوى في اللغة يشهد على حرج المبتدئ، فعمله ـ بالإضافة إلى ذلك علينا أن نتذكر أنَّ الترفيه والتأثير الجماليّ كانا هدفين ثانويين في أحسن الأحوال ـ هدفه الأسمى الإقناع والهداية إلى الدين، وقد تحقق هذا الهدف إلى حدّ مثير للإعجاب، إذا صح التعبير.

الكلماتُ الأُعجميَّة:

يلفت محمَّد الانتباه مراراً إلى أنَّ القرآن ليس مكتوباً مثل الكتب المقدَّسة الأخرى بلغة أعجميَّة، بل باللغة العربيَّة، لذلك فهو مفهومٌ للجميع، في ذلك الوقت تسللت العديد من الكلمات الأعجميَّة، بالإضافة إلى أفكار أعجميَّة، إلى اللغة، ولاسيّما مصطلحات آراميَّة لمفاهيم من أصل يهوديّ ومسيحيّ، كان بعضها قيد الاستعمال العام فعلاً، بينما اقتصر البعض الآخر على دائرة محدودة، واستخدم محمَّد، الذي لم يستطعْ التعبير على نحو كامل عن أفكاره الجديدة بلغة أبناء بلده الشائعة لكنَّه اضطرَّ في كثير من الأحيان إلى إيجاد مصطلحات جديدة خاصَّة به، هذه الكلمات اليهوديَّة والمسيحيَّة بحرية، كما فعل، وإن كان بدرجة أقل، بعض المفكرين والشعراء في تلك المرحلة، الذين كانوا قد ارتقوا إلى حدّ ما فوق مستوى الوثنيَّة، لكن كان ذلك أقلّ إثارة للدهشة في حالة محمَّد، لأنّه كان مديناً لتلقين اليهود والمسيحيين الذين كانت لغتهم العربيَّة ـ كما يشير القرآن بوضوح شديد فيما يتعلَّق بأحدهم ـ ضعيفة جداً، كما أنّه ليس من المستغرب أن يكونَ استخدامه لهذه

الكلمات خاطئاً بقدر فهمه للتاريخ الذي تعلمه من نفس الأشخاص، لدرجة أنَّه يستخدم تعابير آراميَّة بشكلٍ غير صحيحٍ بنفس الطريقة التي يستخدم فيها العديد من الأشخاص غير المتعلمين اليوم كلمات مشتقة من الفرنسيَّة.

وهكذا، وبينما تعني «فُرْقان» «الخلاص» حقاً، إلا أنَّ محمَّداً (مضللاً بالمعنى العربيّ للجذر «فَرَقَ» أي قطع وقرر) استخدمها للتعبير عن «آيات موحى بها»، ومعنى «ملّة» الصحيح هو «كلمة»، إلا أنَّها تعني في القرآن «الدين»، وعلى ما يبدو كانت كلمة «عِلِّيُّونَ» (سورة المطففين: الآيتان 18، 19) الاسم العبريّ لله (عِليوْن) أي «الأعلى»، إلا أنَّ محمَّداً استخدمها للدلالة على كتابٍ سماويّ[1].

إنَّ كلمةَ «مَثَانِي» وهي، كما خمّن غايغر، صيغة الجمع للكلمة الآراميَّة «Mathnítha»، والتي هي نفسها الكلمة العبريَّة «مشناه»، وتشير في الاستعمال اليهوديّ إلى حكم شرعيّ صادر عن أحد الحاخامات القدماء، غير أنَّ «سَبْعاً مِّنَ الْمَثَانِي» (سورة الحجر، الآية 87) في القرآن قد تعني الآيات السبع لسورة الفاتحة، لذلك يبدو أنَّ محمَّداً قد فهمها «قولاً» أو «حكماً» (قارن مع سورة الزمر: الآية 23).

(1) يُنظر: سيغموند فراينكل، De vocabulis in antiquis Arabum carminibus et in Corano peregrinis، طبعة لايدن 1880، ص 23.

أصول الآيات والسور القرآنيّة:

إنَّ الكلماتِ ذات الأصل المسيحيّ أقلّ شيوعاً في القرآن، ومن المثير للاهتمام أنَّ بعضاً منها قد أتى إلى العربيَّة من الحبشيَّة، مثل: «حوَارِيُّون»؛ أي رُسل، و«مائِدَة»؛ أي طاولة، وكلمتان أو ثلاث كلمات أخرى، كلّ هذه الكلمات ظهرت لأول مرّة في الفترة المدنيَّة، وكلمة «شيْطَان» التي تم استعيرت أيضاً، في البداية على الأقل، من الحبشيَّة، ربَّما كانت قد دخلت مسبقاً إلى اللغة آنذاك.

كان ألويس شبرنغر محقاً في ملاحظته أنَّ محمَّداً قدَّم عرضاً معيناً من هذه الكلمات الأعجميَّة، كاستعراضه تعابير أخرى قد صيغت بشكلٍ غريب، فقد اتبع ممارسة مفضلة للشعراء المعاصرين، إنَّه ميل المتعلمين بشكل منقوص إلى الاستمتاع بإطلاق التعابير غير المألوفة، وبعقول كهذه ينتجون بسهولة انطباعاً بالمهابة والغموض، كان ذلك بالضبط التأثير الذي هدف إليه محمَّد، ولتحقيقه يبدو أنَّه اخترع بضع مفردات غريبة، مثل: «غِسْلِين» (سورة الحاقة: الآية 36)، «سِجِّين» (سورة المطففين:الآيتان 7، 8، و«تَسْنِيم» (المطففين: الآية 27)، و«سَلْسَبِيلا» (الإنسان: الآية 18). لكن ضرورة تمكين مستمعيه من فهم الأفكار، التي لا بدَّ أنَّهم وجدوها جديدة في حدّ ذاتها بما فيه الكفاية، فرضت، بطبيعة الحال، حدوداً ضيقة مقبولة على مثل هذه الأشياء الغريبة.

تعودُ محتوياتُ القرآن في حاضرنا الآن في جزءٍ منها إلى الفترة

المكيَّة (قبل 622.م)، وفي جزء آخر إلى الفترة التي بدأت مع الهجرة إلى المدينة (من خريف 622.م إلى الثامن من حزيران 632.م)، كان موقع محمَّد في المدينة مختلفاً تماماً عن ذلك الذي شغله في مدينته الأم، ففي المدينة كان منذ البداية زعيماً لحزبٍ قوي، ثم أصبح تدريجياً الحاكم الأوتوقراطيّ لشبه الجزيرة العربيَّة، أمَّا في مكة فكان مجرَّد واعظٍ محتقر لجماعة دينيَّة صغيرة، وكما هو متوقع، يظهر هذا الاختلاف في القرآن، وهكذا فالفقرات القرآنيَّة المدنيَّة، سواء أكانت سوراً كاملة أم فقرات منفصلة مقحمة في سورٍ مكيَّة، متميزة تماماً في محتواها عن تلك التي ظهرتْ في مكة، وفي معظم الحالات، لا يمكن أن يكونَ هناك شك في أنَّ مقطعاً ما قد ظهر إلى النور لأوَّل مرَّة في مكة أم في المدينة، الأدلة الداخليَّة مدعومة من الروايات الإسلاميَّة، وبما أنَّ الآياتِ التي ظهرتْ في المدينة تلاحظ الأحداث التي لدينا عنها معلومات دقيقة جداً، وتواريخها معروفة على الأقلّ تقريباً، فإنَّنا في موقع يسمح لنا بتحديد تواريخها مع قدر كبير من اليقين على أيّ حال، وهنا مرة أخرى أيضاً، تقدم التقاليد مساعدة قيّمة، لكن حتى فيما يتعلَّق بالفقرات المدنيَّة يبقى الكثير منها غير مؤكد، ويعود ذلك في جزء منه إلى أنَّ التلميحات إلى الأحداث والظروف التاريخيَّة هي بوجه عام غامضة إلى حدٍّ ما، وفي جزء آخر، إلى أنَّ الروايات المتعلقة بأسباب نزول المقاطع المختلفة غالباً ما تكون متقلبة، وغالباً ما تستند إلى سوء الفهم أو تخمين لا مسوغ له، لكن على أيّ حال إنَّ ترتيبَ السور المدنيَّة حسب التسلسل الزمنيّ

أسهل بكثير من ترتيب تلك التي أُلفت في مكة، ويوجد بالفعل رواية تصرّح بتزويد قائمة مرتبة حسب التسلسل الزمنيّ لكلّ السور، لكن ناهيك من وجودها في عدة صيغ متباينة، وأنَّها لا تأخذ في الحسبان حقيقة أنَّ سورنا الحالية مؤلفة جزئيّاً من مقاطع ذات تواريخ مختلفة، فهي تحتوي على الكثير من العبارات المشبوهة أو المكذوبة بلا شك، لدرجة يستحيل منحها أهميّة كبيرة، فضلاً عن ذلك فإنَّه من غير المحتمل مبدئيّاً أن يدوّن أحد معاصري محمّد مثل هذه القائمة، ولو أنَّ أحداً حاول لوجد أنَّ من المستحيل تقريباً الحصول على معلومات موثوقة حول تسلسل السور المكيَّة المبكرة، وليس لدينا في هذه القائمة رواية أصيلة، بل أعمال أدبيَّة مُجهِدة لناقد مسلم حَيّ الضّمِير بلا شك، ربَّما عاش بعد الهجرة بحوالي قرن من الزمان.

من بين آيات الوحي التي كشف عنها في مكة، يوجد عددٌ لا بأس به من السور القصيرة (بالنسبة إلى الجزء الأكبر)، والتي تصدم أيّ قارئ يقظ إلى كونها الأقدم، إنَّها بالكامل مختلفة النوع عن سور عديدة أخرى، وتحمل تشابهاً أقلّ في تأليفها ومحتواها من مقاطع المدينة، ومن المعقول بلا شك ـ كما يفترض شبرنغر ـ أنَّ محمَّداً ربَّما عاد على في فترات إلى أسلوبه السابق، لكن بما أنَّ مجموعة السور هذه تبدي تشابهاً ملحوظاً في الأسلوب، وبما أنَّ التشكّل التدريجيّ لأسلوب مختلف هو في مجمله حقيقة لا لبس فيها، فإنَّ هذا الافتراض غير مرجّح؛ لذلك علينا الالتزام بالرأي القائل إنَّ هذه السور تشكل مجموعة قائمة بذاتها.

على طرف النقيض منها هنالك مجموعة أخرى، تبدي تشابهاً واضحاً مع أسلوب السور المدنيَّة، لذلك فمن الواجب نسبها إلى الجزء الأخير من سيرة النبيّ في مكّة، وبين هاتين المجموعتين يوجد عددٌ من السور المكيَّة الأخرى، التي تظهر من جميع النواحي انتقالاً من المرحلة الأولى إلى الثالثة، وغني عن القول إنّ الفترات الثلاثة، التي ميزها لأوَّل مرَّة البروفيسور ويل، لا تفصلها حدود فاصلة واضحة، أمّا بالنسبة إلى بعض السور، فمن المشكوك فيه وضعها في المجموعة الوسطى أو الأولى، أو في الأخرى المتطرفة، ومن المستحيل تماماً ضمن هذه المجموعات، وضع تسلسل زمنيّ محتمل لآيات الوحي المفردة، وإذا لم يكن يوجد إشارات واضحة إلى أحداثٍ معروفة، أو أحداثٍ من الممكن تحديد تواريخها، فيمكننا محاولة تقصي التطور النفسيّ للنبيّ بواسطة القرآن، وترتيب أقسامه تبعاً لذلك، إلا أنَّ المرء في عملٍ مثل هذا، يميل دوماً لوضع فرضيَّات ذاتيَّة الطابع أو مجرد تخيلات لمعلوماتٍ ثابتة.

إنَّ الرواياتِ الجيدة عن أصول الآيات والسور المكيَّة ليست كثيرة جداً، وسيرة محمَّد بأسرها قبل هجرتهِ مرويةٌ بشكلٍ منقوص لدرجة أنَّنا غير متأكدين حتى من السنة التي ظهر فيها كنبيّ، ربَّما كان ذلك في عام 610م، وربَّما قبل ذلك بقليل، ولكن من غير المحتمل أن تكونَ بعده، وإن كانت سورة الروم («غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الأَرْضِ»؛ الآية الأولى وما يليها) وما يليها تشيرُ حسب إحدى الروايات إلى هزيمة البيزنطيين على يد الفرس بالقرب من دمشق، حوالي ربيع 614، فإنَّها ستتبع

المجموعة الثالثة، والتي تعود إليها هذه القطعة، وتغطي الجزء الأكبر من الفترة المكّيّة، وليس من المستبعد بمعزل عن الاعتبارات الأخرى أنَّ الحماسةَ العاطفيَّة التي ميّزت المجموعة الأولى لم تدمْ طويلاً، ولا يتعارض هذا الافتراض مع القول المسند بشكلٍ جيدٍ، مع أنَّه بعيدٌ عن أن يكونَ غير قابل للرفض، لأن عمرُ بن الخطاب حين تحول عن دينهِ (615 أو 616.م)، كانتْ سورة طه، والتي تعود إلى المجموعةِ الثانية المكتوبة مسبقاً، لكن إشارة سورة الروم، الآية الأولى وما يليها، إلى هذه المعركة غير مؤكدٍ بأيّ شكلٍ حتى نستخلص استنتاجات إيجابيَّة منها، وينطبق الأمر نفسهُ على التلميحات الأخرى في السور المكيَّة للأحداث التي يمكن التأكد من تسلسلها الزمنيّ جزئيَّاً، لذلك فمن الأفضل الاكتفاء بمجرد تحديد نسبيّ لتسلسل مجموعات السور المكيّة الثلاثة الكبرى.

في مقاطع الفترة الأولى، كثيراً ما يتم التعبير عن الإثارة المتشنجة للنبيّ بأكبر قدر من الحدة، إذ انجرف بمشاعره لدرجة أنَّه يُصبح غير قادرٍ على اختيار كلماته، بل يبدو كما لو أنَّها تتفجّر منه، وتذكرنا العديد من هذه المقاطع بنبوءات الكُهَّان الوثنيين القدامى، وأسلوبهم المعروف بالنسبة لنا من تقليد أعمالهم، مع أنَّنا ربّما لا نمتلك مثالاً حقيقيّاً واحداً، ومثل تلك النبوءات الأخرى، تتألف سور هذه الفترة، التي لم تكنْ طويلة جداً، من جمل قصيرة ذات قوافٍ دقيقة على نحو مقبول ولكن سريعة التغير.

استخدمت الأيْمان/ الأقْسام أيضاً، والتي تبدأ الكثير من السور بها، إلى حد كبير من قبل الكُهّان، بعض هذه الأيْمان فظة للغاية جداً ويصعب فهمها، وربَّما لم يكنْ من المفترض لبعضها أن يُفهم، لأنَّنا نقابل جميع أنواع الأشياء الغريبة في هذه الفصول.

يتكلَّمُ محمَّد في أماكن مختلفة عن الرؤى، ويبدو أنَّه قد رأى ملائكة أمامه في هيئة جسديَّة، وتوجد بعض الأوصاف الواضحة بشدَّة للبعث واليوم الآخر؛ أوصافٌ ربَّما كان لها قوّة شيطانيَّة على رجالٍ لم يكونوا على دراية بمثل هذه الصور، وترسم مقاطع قرآنيَّة أخرى بألوان زاهية صور مباهج الجنة وآلام الجحيم، ومع ذلك لم تكنْ كلّ سور هذه الفترة جامحة كتلك، ويبدو أنَّ تلك التي صيغت أثناء مزاجٍ مستقر هي الأقدم، إلا أنَّ على المرء أن يُكرر أنَّ من الصعب للغاية تحديد أيّ تسلسل زمنيّ دقيق، وعلى سبيل المثال: ليس من المؤكد إطلاقاً إن كانت بدايةُ سورة العلق هي أقدم جزء في القرآن بأسره كما تدعوها روايات شائعة عديدة، إذ تعود هذه الرواية إلى زوج محمَّدٍ المفضلة عائشة، ولكن بما أنَّها لم تكنْ قد وُلِدت في الفترة التي قيل إنَّ الوحي قد نزل فيها، فإنَّ هذه الرواية لا يمكن، في أحسن الظروف، أن تحتوي إلا على ما قاله لها محمَّد بعد ذلك بسنوات، من ذكرياته غير الواضحة تماماً، مع أو من دون إضافات وهميَّة، ومن ناحية أخرى، لا تعدّ عائشة مصدراً موثوقاً به، وإلى جانب ذلك، توجد قطع أخرى ذكرها آخرون على أنَّها الأقدم، على أيّ حال تعدّ سورة العلق، الآية الأولى وما يليها، مبكرة جداً بلا

شكٍ، ووفقاً للرواية التقليديَّة، والتي يبدو أنَّها صحيحة، فإنَّ السورةَ تتعلَّق برؤيا تلقى فيها النبيّ أمراً بقراءة آيات وحي نقلها له الملاك، ومن المثير للاهتمام ملاحظة شيئين يظهران هنا كدليل على قدرة الله الكليَّة وعنايته، الأوَّل هو خلق الإنسان من نطفة؛ فكرة يردّدها محمَّد كثيراً، والآخر هو فن الكتابة المستعمل مؤخراً، والذي انتهزه محمد غريزيّاً كأداة لنشر عقيدته.

أصبحتْ نبرةُ الآياتِ شديدةَ الانفعالِ بعد أن لاقى محمَّدٌ مقاومة عنيدة، وفي تلك الحالات، لم يتردَّد عن النطق بتهديدات رهيبة ضدّ أولئك الذين استهزأوا من الوعظ حول وحدة الله والبعث والدينونة، لقد صده عمه أبو لهب بصورة فظّة إلى حدّ ما، فحشره هو وزوجه في الجحيم عبر سورة قصيرة خاصة.

تشكّل سور هذه الفترة على وجه الحصر تقريباً الأجزاء الختاميَّة من النص الحاليّ، ومع ذلك يميل المرء إلى الافتراض بأنَّها كانتْ أكثر عدداً فيما مضى، وأنَّ الكثيرَ منها ضاع في فترة مبكرة.

نظراً لأنَّ قوَّةَ محمَّد تكمن في خياله المُتَّقِد والحماسيّ بدلاً من ثراء الأفكار ووضوح الفِكَر المجردة اللتين يعتمد عليهما الاستنتاج الدقيق، فإنَّ ذلك يترتب على أنَّ السور القديمة، التي تظهر فيها الصفات المذكورة سابقاً بمساحة حرّة، يجب أن تكونَ أكثر جاذبيَّة لنا من السور اللاحقة، وفي سور الفترة الثانية يتضاءل توهج المخيلة

فجأة، وما يزال هنالك حَماسة وحيويَّة، لكن النغمة تصبح أقلّ إثارة تدريجيّاً، ومع انحسار الأرق المحموم، تمتدّ الفترات وتصبح الآيات ككلّ أكثر طولاً، وتثبتُ صحةُ العقيدة من خلال الأمثلة المتراكمة على عمل الله في الطبيعة والتاريخ، أمَّا اعتراضات الخصوم، سواء قدمت بحسن نية أو سخرية، فقد دحضت من خلال الحجج، إلا أنَّ تقديمَ الحُجّة كثيراً ما يكون مرتبكاً أو حتى ضعيفاً، إنَّ قصصَ الأنبياء السابقين، والتي قد تم التطرق إليها بإيجاز في الفترة الأولى، أصبحت الآن مرتبطة ببعضها البعض، وبإسهاب أحياناً، بوجه عام، إنَّ سحرَ الأسلوب يتلاشى.

يوجدُ مقطعٌ في القرآن ينتمي إلى بداية هذه الفترة، إن لم يكن ينتمي إلى خاتمة الفترة السابقة، ويستحق عناية خاصة، وهي السورة الأولى؛ أي «الصلاة الربانيَّةُ للمسلمين»، وهي جوهرة القرآن بلا منازع، وكلمات هذه السورة، والتي تعرف بالفاتحة، هي كالآتي:

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (1) الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (2) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (3) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (4) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (5) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (6) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (7)}.

إنَّ الأفكار شديدة البساطة لدرجة أنَّها لا تحتاج إلى تفسير، ومع ذلك فإنَّ «الصلاة» مليئةٌ بالمعاني، وصحيح أنَّه لا توجد في السورة فكرةٌ

أصيلةٌ واحدةٌ من محمَّد، والعديد من الكلمات والتغييرات في التعابير مستعارة من اليهود مباشرة، ولا سيّما وصف الله بأنَّه «الرَّحْمَن»؛ هذه الكلمة بكلّ بساطة هي «رَحمانا» اليهوديَّة والتي كانت اسماً مفضلاً لله في الفترة التلموديَّة، ويبدو أنَّ محمَّداً قد فكّر لفترة ما في تبني «الرحمن» كاسم صحيح لـ الله، بدلا عن كلمة «الله»، الذي كان مستخدماً سابقاً من الوثنيين[1].

لقد تخلَّى عن هذا الغرض في النهاية، لكن استخدام كلمة «الرَّحْمَن» كان متواتراً في سور الفترة الثانية على نحو خاص، ومن المحتمل أن يكونَ محمَّدٌ قدّم صيغة «باسم الله... إلخ» في السورة الأولى لأوّل مرّة، ومن المؤسف أنَّ هذه الصلاة تفقد فعاليتها بسبب كثرة استخدامها، فكلّ مسلم يؤدي صلاته بانتظام، كما يفعل معظمهم، يكررها عشرين مرَّة على الأقلّ في اليوم.

إنَّ سورَ المرحلة المكيَّة الثالثة والتي تشكل جزءاً كبيراً من قرآننا الحاليّ، تكاد أن تكونَ نثريَّة بالكامل، وبعض الآيات ذات طول ملحوظ، والسور المفردة هي بدورها أطول بكثير عمّا في السور الأكثر قِدماً، لا تبرق لمحة من القوة الشعريَّة إلا في مواضع متفرقة، فالطابع الوعظيّ طاغٍ، والسور شديدة التركيز على التثقيف بالنسبة إلى شخصٍ قد روض نفسه

(1) نظراً لأنَّ الجذر «رحم» باللغة العربيَّة يعني «الشعور بالشفقة» أيضاً، فلا بدَّ أنَّ العربَ أدركوا على الفور قوَّة الاسم الجديد.

على أهميتها، إلا أنَّها ـعلى الأقلّ بالنسبة لناـ لا تبدو ملائمة جداً للتمكن من إقناع عقول الكفار، لكن هذا الانطباع خاطئ؛ لأنَّ إشهار هذه السور المكيَّة الأكثر طولاً يبدو أنَّه كان مؤثراً بوجه خاص في نشر الإسلام، ولم تكنْ مهمَّة محمَّد موجَّهة إلى الأوروبيين، ولكن إلى شعب، بالرغم من أنَّه سريع البديهة ونبيه، إلا أنَّه لم يكنْ معتاداً على التفكير المنطقيّ، بينما كان قد تخلص من ديانته القديمة السابقة.

يُصبحُ من الأسهل كثيراً حين نصل إلى الفترة المدنيَّة ـكما أشرناـ أن نفهمَ الآياتِ في سياق روابطها التاريخيَّة؛ لأنَّ أن معرفتنا بتاريخ محمَّدٍ في المدينة مكتملة على نحو جيدٍ، وفي العديد من الحالات تكون الحادثة التاريخيَّة واضحة تماماً، ويمكننا في حالات أخرى على الأقل التعرّف إلى الوضع العام الذي ظهرت فيه، ومن ثمَّ تحديد زمنها على وجه التقريب، إلا أنَّه يبقى مع ذلك بقية لا يمكننا أن نقولَ عنها إلا أنَّها مدنيَّة.

يشبهُ أسلوب هذه الفترة إلى حدٍ بعيد أسلوب الفترة المكيّة المتأخرة، وهو نصوص نثرية بالنسبة للجزء الأكبر، تُثريه مُحسنات بلاغيّة أحياناً، ومع ذلك بإمكاننا هنا أيضاً العثور على العديد من المقاطع الرائعة والمثيرة للإعجاب، ولاسيّما تلك الأقسام التي من الممكن عدّها تصريحات موجّهة إلى جيش المؤمنين، ولمحمّدٍ بالنسبة إلى المسلمين رسائل مختلفة، ففي بعض الحالات تعدّ الرسالةُ استدعاءً للقيام بمعركة من أجل العقيدة، وفي حالات أخرى هي سلاسل من

التأملات حول نجاح أو محنة تعرّضوا لها مؤخراً، أو توبيخاً على إيمانهم الضعيف، أو موعظةً حول الفضيلة، وما إلى ذلك. وكثيراً ما يُخاطب «المنافقين»، الذين يتأرجح بعضهم بين الإيمان والكُفر، ويتظاهر آخرون بالإيمان، ولا يكلف البعض الآخر عناء التفكير بذلك، إنَّهم ليسوا بالحزب المتماسك، إلا أنَّهم جميعاً بالنسبة لمحمدٍ مثيرون للغيظ بالقدر نفسه، لأنَّهم بمجرد مواجهة الخطر أو تُطلب مشاركةٌ حتى يفروا كلّهم سواء، وتوجد نوباتٌ لفظيَّة متواترة الظهور ضدّ اليهود، الذين كانوا كثيري العدد جداً في المدينة وجوارها عند وصول محمَّد، ومرارة أكثر من أي وقت مضى، ولم يكن لمحمّد الكثير لقوله ضدّ المسيحيين، الذين لم يحتك بهم عن قرب قط، أمَّا بالنسبة للوثنيين، فلم يكن هنالك إلا مناسبات قليلة في المدنيَّة يُمكنه فيها التحدث معهم بكلام كثير.

يتألف جزء من المقاطع المدنيَّة من قوانين رسميّة تنتمي إلى القوانين الشعائريَّة والمدنيَّة والجزائيَّة، أو توجيهاتٍ تتعلّق بإشكالات مؤقتة، وأكثر أجزاء القرآن كلّه إثارة للنفور هي تلك التي تتعامل مع علاقاتِ محمدٍ بالنساء. كانت القوانين والأنظمة ـ بوجهٍ عام ـ عبارة عن آياتٍ موجزةٍ جداً، دُمج معظمها مع مقاطع أخرى ذات أهميَّة مشابهة أو غير مشابهة في سورٍ طويلة للغاية الآن.

كان ذلك رسماً غير كاملٍ لمحتوى القرآن وتاريخه الداخليّ، لكن

ربّما يكون كافياً لإثبات أنّ الكتاب مجموعة متباينة المواضيع للغاية، فلو أنَّ تلك الفقرات التي لها قيمة دائمة تتعلق بالفقه الدينيّ أو الأخلاق أو الشرائع الخاصَّة بالمسلمين، لكانت أجزاء قليلة أكثر من كافية، ولحسن حظ المعرفة، أدى احترام قدسيَّة الحَرْفِ إلى جمعِ جميع الآياتِ التي يمكن جمعها، الناسخة مع المنسوخة، والفقرات التي تشير إلى ظروفٍ انقضت مع تلك التي لها أهميَّة دائمة. إنَّ كلَّ من ينظر إلى الكتاب من وجهة نظرٍ دينيَّة مناسبة، كما يفعل معظم المسلمين، يقرأ المقاطع الموجَّهة ضدّ ممارسات أهل مكة السخيفة التي عفا عليها الزمن بنفس الخشوع الذي يبديه عند قراءته لأكثر المفاهيم الأخلاقيَّة ثقلاً، وربّما أشد خشوعاً، لأنَّه لا يفهمها جيداً.

حروف استهلاليَّة:

توجد في رأس تسع وعشرين سورة حروفاً استهلاليَّة معيَّنة، لا يمكننا اشتقاق معنى واضحٍ لها، لذلك نجدُ «الم» في بداية سور البقرة وآل عمران ولقمان والسجدة، ونجدُ «حم» في بداية سورة غافر والأقحاف. لقد اقترحت ـ في وقت سابقٍ ـ بأنَّ هذه الأحرف لا تنتمي إلى نص محمَّد، لكنّها قد تكون أحرفاً لمالكين من المخطوطات، والتي ربما أُدخلت في الصيغة النهائيَّة للقرآن نتيجة إهمال المنقحين، كما أرى الآن أنّ الأكثر احتمالاً هو أنَّها تعود إلى النبيّ نفسه، كما افترض شبرنغر ولوث.

لا يمكنُ حقاً الاعتراف بصحة ما قاله لوث أنه في الكلمات

الافتتاحية المقابلة لهذه السور نجد عموماً إشارة إلى الأحرف الاستهلاليَّة المرافقة لها، ولكن من النادر أن يكونَ من قبيل الصدفة احتواء الآية الأولى للغالبية العظمى منها (الآية الثانية من سورة آل عمران) على كلمة «كتاب» أو «آيَات» أو مرادف آخر، وعادة ما تبدأ بـ «نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَاب» أو «ذَلِكَ الْكِتَاب» أو ما شابه، ومن بين السور التي تستهل بهذا الشكل عدد قليل فقط يفتقد لهذه الحروف الاستهلاليَّة (سور الكهف والنور والفرقان والزمر)، بينما تمتلك سور العنكبوت والروم الأحرف إلا أنها تبدأ على نحو مختلف.

من السهل القول إنَّ هذه الاستثناءات قد نشأت عبر تحريفات قديمة، فلا يمكنها على أي حال أن تنفي الدليل الذي يُقدّمه العدد الكبير.

يبدو أنَّ محمداً قد عنى بهذه الأحرف إشارة صوفيَّة إلى النص الأصليّ المحفوظ في السماء، بالنسبة إلى رجلٍ ينظر إلى فن الكتابة ـ الذي كان لديه أقلّ معرفة به بأفضل الأحوال ـ بوصفه شيئاً فائقا للطبيعة، ولرجلٍ عاش وسط شعب أمي، قد تبدو ألف باء ذات معنى أعمق ممَّا قد يبدو لنا نحن الذين قد تدربنا على أسرار هذا الفن منذ الصغر.

لا يمكن الاعتقاد بأنَّ النبيَّ نفسه قد أعطى لهذه الرموز أيّ معنى خاص؛ إنَّها تؤدي غرضها؛ إذ إنَّها تركت انطباعاً بالمهابة والغموض المبهم.

في الحقيقة، يعترف القرآن بأنَّه يحتوي أشياء عديدة لا يمكن، ولم يُقصد منها، فهمها (آل عمران: 5)، إنَّ اعتبار هذه الأحرف شفرات نظريَّةٌ هشّة، لسبب بسيط هو أنَّه لا يُمكن البحث عن التشفير في مرحلة طفولة فن الكتابة العربيَّة، إن كانت شفرات حقاً، فإنَّ تعددَ الشروح المحتملة يُبعد في الحال الأمل بإيجاد تفسيرات معقولة، ولم تؤد الجهود الموجهة في هذا الاتجاه، سواء قام بها علماء مسلمون أو أوربيون، إلى أيّ نتيجة مُقنِعة.

إنَّ الملاحظةَ المذكورة تشير إلى تخمين شبرنغر المبتكر بكون حروف «كهيعص» في بداية سورة مريم (التي تتناول قصة يحيى وعيسى، والتي، طبقا للروايات، أرسلت إلى ملك الحبشة) تعني «ملك اليهود عيسى الناصريّ»، وتوصل شبرنغر إلى هذا التفسير بطريقة مصطنعة جداً، بالإضافة إلى أنَّ محمّداً لم يكن بسذاجة التقليديين الذين تخيلوا أنَّ الحبشيَ بإمكانه أن يقرأ مقطعاً من القرآن العربيّ.

من غير الضروري القول إنَّ المسلمين منذ القدم قد كرَّسوا أنفسهم باجتهاد لمحاولة فك طلاسم هذه الفواتح، وقد وجدوا فيها أعمق الأسرار أحياناً، إلا أنَّهم مكتفون عموماً بالاستنتاج الحذر بأنَّ الله وحده هو الذي يعرف معنى هذه الأحرف، وحين توفي محمَّد، كانت مقاطع القرآن المنفصلة موجودة في نسخٍ متفرقة، بالرغم من قُدسيتها النظريَّة، لذلك فقد كانت في خطر التلف على نحو جزئيّ أو كامل.

جمعُ القرآن وتدوينه:

حفظ الكثير من المسلمين أجزاء من القرآن عن ظهر قلب، ولكن لم يحفظ أحدُ القرآن كله، فكان لنشرٍ عن طريق التداول وحده أن يفتح الباب لكلّ أنواع التحريفات المقصودة وغير المقصودة.

لم يفكر محمّدٌ نفسه بجمع آياته في مجموعة أصيلة، لقد كان منشغلاً عادة بموضوع الساعة فلم تدخل باله فكرة أنَّ الآيات ستدمر إن لم يوفر طريقة لحفظها بطريقة آمنة، ومن الصعب نوعاً ما على رجلٍ تنقصه الثقافة الأدبيَّة أن يستشرفَ مصير نتاجاتٍ فكريَّة، لكن الآن بعد وفاة محمَّد، ثار معظم العرب على خليفته، فوجب إخضاعهم بالقوة.

كانت مواجهة النبيّ مَسلمة دمويةً على نحو خاصٍ، إذ كان مَسلمة مقلّداً لمحمدٍ وكثيراً ما يُعرف باسم التحقير مسيلمة (أي مسلمة الصغير)، في ذلك الوقت (633م) سقط بعض أكثر المسلمين إخلاصاً صرعى، وكانوا هم نفسهم الرجال الذين كانوا يحفظون معظم مقاطع القرآن غيباً، حينها بدأ عمر يخشى أن يُنسى القرآن تماماً، فحثّ الخليفة أبا بكر على أن يقوم بجمع جميع أجزائه.

ألقى الخليفة المهمّة على كاهل زيد بن ثابت، وهو مدنيّ الأصل، وكان آنذاك في الثانية عشرة من عمره، وكان عادة ما يقوم بوظيفة الكاتب للنبيّ، ويُقال إنَّه تعلَّم الحروف العبرانيَّة أثناء خدمته.

لقد وصلتنا رواية جمع القرآن هذه بصيغٍ متعددة متطابقة على نحوٍ كبير، وهي تعود إلى زيد نفسه، طبقاً لهذه الروايات، قام زيدٌ بجمع الآيات أخذاً من نسخٍ مكتوبة على الحجارة الرقاق، والرقاع من الجلد، والعسب أو جريد النخل (لا السعف نفسه)، ومواد كهذه، لكنَّه جمعها بوجه خاصٍ «من صدور الرجال» أي أخذاً من ذاكرتهم، فكتب نسخة حسنة قدمها لأبي بكر، ثم انتقلت منه إلى خليفته عمر، والذي أورثها لابنته حفصة، إحدى أرامل النبي؛ إنَّ هذه المجموعة من الكتابات والتي كثيراً ما تعرف بالصحف لم يكن لها منذ البداية سلطة مرجعيَّة، ولا يمكن إلا الحدس بترتيبها الأساسي.

كان المسلمون أبعد ما يكون عن امتلاك نصٍ موحّدٍ للقرآن، ولم يعلمْ أكثر محاربيهم بسالة إلا القليل عنه على نحو يثير الأسى، وقُدِّم الامتياز في هذا المجال لرجال أتقياء، مثل: ابن مسعود، لكن ظهور الاختلافات بين نصوص الفقهاء المحترفين كان أمراً لا يمكن درؤه، وبما أنَّ هؤلاء الرجال كانوا مراجع لقراءة القرآن في مواقع سكناهم المتعددة، بدأت الخلافات بالاندلاع بين أجناد المقاطعات المختلفة حول الصيغة الحقيقيَّة للكتاب المقدَّس الإسلاميّ.

خلال حملة جرت في عام 30 للهجرة (650-651.م)، أدرك حُذيفة المنتصر في معركة نهاوند العظيمة الحاسمة، والتي كانت بالنسبة إلى إمبراطوريَّة الساسانيين كما كانت معركة غوغميلا بالنسبة إلى إمبراطوريَّة

الأخمينيين، أنَّ خلافاتٍ كهذه بإمكانها أن تُصبحَ خطرة، لذلك فقد حثَّ الخليفة عثمان على ضرورة وجود نصٍ ملزم لجميع المسكونة.

عهد بالمهمَّة إلى زيد الذي كان قد قام بعمليَّة الجمع السابقة، وإلى ثلاثة قرشيين بارزين، جمع هؤلاء أكبر عددٍ من النسخ أمكنهم أن يضعوا أيديهم عليها، وأعدوا نسخة أصبحت النسخة القانونيَّة لجميع المسلمين، ولمنع أيَّ خلاف مستقبليّ، قاموا بإحراق جميع المصاحف الأخرى عدا مصحف حفصة، والذي بالرغم من ذلك أُحرقه لاحقاً مروان والي المدينة، وكان إحراقُ المصاحف السابقة خسارة لا يمكن تعويضها للنقد، إلا أنَّ هذه الخطوة كانت ضروريَّةً من أجل الغاية ذات الطبيعة السياسيَّة، التي هي وضع حدّ للجدال من خلال الاعتراف بصيغة واحدة فقط لكتاب الدين والشريعة الذي يشترك فيه الجميع.

إنَّ نتاجَ هذه الأعمال بين يدينا، إلا أنَّنا لا نمتلك معلوماتٍ موثوقة حول كيفيَّة السير بهذه الأعمال، والروايات هنا متأثرة جداً بالافتراضات المسبقة الناتجة عن تحيّز عقائديّ، إلا أنَّ الأساليب النقديَّة للجنة علميَّة حديثة لا يُمكِن توقعها في عصرٍ كان التعليم الأدبيّ الأعلى للعربيّ هو في معرفةُ القراءة والكتابة، ويبدو لي في هذه المرحلة أنَّ هذا الجمع الأدبيّ الثاني قد اتخذ الشكل البسيط الآتي: يقرأ زيدٌ في المصحف الذي كان قد كتبه سابقاً، فيكتب زملاؤه، بوقت واحدٍ أو تباعاً، نسخةً كلّ حسب إملائه.

كانت تلك، كما أفترض، النسخ الثلاث التي أُرسِلَت إلى المراكز الثلاثة: دمشق والبصرة والكوفة، لتكون بمثابة مراجع للأجناد المتمركزين في الولايات الثلاث على التوالي، ولا شك أنَّ نسخةً رابعةً قد استبقيت في المدينة، فإن كان ذلك صحيحاً، فمن المستحيل الآن تمييز ما يعود إلى أوّل جمع ممّا يعود إلى الثاني في الصيغة الحاليّة للكتاب.

في ترتيب الأقسام المنفصلة، كان التصنيفُ حسب المحتوى أمراً غير عمليّ لأنَّ مواضيع مختلفة كان يتم تناولها في سورة واحدة، وكان الترتيب على أساس التسلسل الزمنيّ أمراً غير ممكن، فلا بدَّ أنَّ تسلسل المقاطع الأقدم لم يكن معروفاً تماماً، ولأنَّ فقراتٍ ذات تواريخ مختلفةٍ كانت تُجمع سوية في بعض الأحيان أيضاً.

كانت مبادئ تنظيميَّة كهذه مهملة تماماً في تلك الفترة، وهكذا رتّبت المقاطع لا على التعيين، وكانت القاعدة المرعية الوحيدة هي وضع السور الطويلة أولاً والأقصر أخيراً، بل إنَّ هذا الأمر لم يُراعَ بالحرف. إنَّ سورةَ الفاتحة القصيرة وضعت في محلها مراعاة لتفوقها على باقي السور، كما وضعت معوذتان في النهاية كنوعٍ من الحماية، كان هذان الأمران الآثار الخاصة الوحيدة التي تدل على التصميم، وإنَّ جمع مقاطع ذات مصادر مختلفة ربما نشأ جزئيّاً عن إعداد المصاحف التي جمع منها زيدٌ نسخته الكاملة الأولى، وجزئيّاً بسبب زيدٍ نفسه تُفصل السور ببساطة من خلال العبارة الاستهلاليَّة «باسم الله الرحمن الرحيم» والتي لا تكون مفقودة

إلا في سورة براءة، أمَّا العبارات المقدمة الأخرى الموجودة في نصوصنا (اسم السورة وعدد آياتها، إلخ) فلم تكنْ موجودةً في المصحف الأصليّ، ولم تشكل جزءاً أساسيّاً من القرآن.

يقال إنَّ عثمان قد وجه زيداً ومجموعته أن يتبعوا في حالة وجود خلال اللهجة القرشيَّة، ولكن بالرغم من أنَّ هذه الرواية ذات سند جيد إلا أنَّه من الصعب أن تكون صحيحة، كان أسلوب الكتابة البدائيّ للغاية في تلك الأيام غير قادرٍ على تبيان اختلافات دقيقة كتلك التي كانت موجودة بين طريقة لفظ أهل مكة وطريقة لفظ أهل المدينة.

لم يكنْ قرآن عثمان كاملاً، ومن الواضح أنَّ بعض الفقرات مجزأة، وما تزال توجد بعض مقاطع مُقتطعة، والتي كانت في الأصل أجزاء من القرآن، بالرغم من أنَّها قد حُذِفت من قبل زيد، ومن بينها توجد أجزاء لا يوجد سبب لافتراض أنَّ محمداً رغب في إزالتها، ربَّما تغاضى زيد عن بضع بقايا ضالة، لكن من غير المرجح تماماً أن يكونَ عن قصدٍ حذف أيّ شيء اعتَقَدَ أنَّه ينتمي إلى القرآن.

لقد حدس البعض أنَّه قد أبعد عن الكتاب ذكر أعداء محمَّد مراعاة لرؤسائه، ذلك إن شاء أن يحتفظوا أو تحتفظ عوائلهم باحترامهم في المستقبل، لكن علينا أن نتذكر أنَّه لم تكن من عادة محمَّد أن يشير بوضوح إلى معاصريه وإلى شؤون معاصرة في القرآن، فلم يُذكر بالاسم إلا صاحب واحد هو ابنه بالتبني زيد (الأحزاب: 37) وعدو واحد هو عمه

أبو لهب (سورة المسد)، وكان ذِكر هؤلاء لأسباب خاصة، كما أنَّ اسم أبي لهب قد تُرك في القرآن مع لعنة مخيفة مرتبطة به، بالرغم من أنَّ ابنه قد أسلم قبل وفاة محمَّد، وبالرغم من أن ذريته كانوا من علية القوم، لذلك، من جانب آخر، لا توجد آية واحدة أو عبارة واحدة يمكن النظر إليها على نحو منطقيّ بوصفها مقحمة من قبل زيد بأمر من أبي بكر أو عمر أو عثمان، وربما كانت توجد أخطاء نسّاخين، إلا أنَّ قرآن عُثمان لا يحتوي إلا على عناصر أصيلة، مع أنَّها ذات تسلسلٍ غريب جداً أحياناً.

ما يزال بالإمكان التبيان بشكلٍ واضح كيف أنَّ مصاحف القرآن العثمانيّ الأربعة كانت متفرقة عن بعضها البعض في نقاطٍ إملائيَّة، وفي إدخال أو حذف حرف العطف «و» وما شابه ذلك من صغائر الأمور، إلا أنَّ هذه الاختلافات لا تؤثر على المعنى بأيّ شكلٍ، وكلّ المخطوطات المتأخرة مأخوذة عن هذه الأربعة الأصليَّة.

في نفس الوقت، لم تنقرضْ الصيغُ الأخرى للقرآن حالاً، ولدينا بوجه خاص بعض المعلومات عن مصحف أُبي، إن كانت القائمة التي تُعطي تسلسل سوره صحيحة، فلا بدَّ أنَّه قد احتوى عموماً على نفس المواد الموجودة في نصنا، ولا بدَّ أنَّ أُبياً في تلك الأدلة كان قد استخدم مجموعة زيدٍ الأصليَّة، وينطبق الشيء نفسه على مصحف ابن مسعود، الذي لدينا دليل محتوياته أيضاً، ويبدو أنَّ مبدأ وضع السور الطوال قبل القصار كان أكثر إلزاماً بالنسبة له بالمقارنة مع زيد، إنَّه يحذف سورة

الفاتحة، والمعوذتين (سورة الفلق وسورة الناس)، و يضم أُبي من ناحية أخرى دعاءَين آخرين قصيرين، لا أجرؤ على التشكيك بأصالتهما الآن كما فعلت سابقاً.

يمكن للمرء أن يفهمَ بسهولة أنَّ الاختلافات في وجهات الرأي قد تكون موجودة حول ما إذا كانت صيغ من هذا النوع تنتمي إلى القرآن وإلى أي مدى تنتمي إليه، وما تزال بعض القراءات الشاذة لكلا النصين محفوظة، بالإضافة إلى عدد لا بأس به من القراءات المغايرة القديمة الأخرى، وتعدُّ معظم هذه القراءات أدنى من القراءات التي وصلت إلينا درجةً على نحو جازم، إلا أنَّ بعضها جيد جداً، ويستحق البعض منها الأفضلية.

إنَّ الرجلَ الوحيدَ الذي يبدو أنَّه عارض تعميم نص عثمان هو ابن مسعود، الذي كان أحد أقدم أتباع النبيّ، ولطالما قدّم خدماتٍ شخصيَّة له، إلا أنَّه كان رجلاً ذا وجهاتِ نظرٍ متعارضة بالرغم من أنَّه كان أحد أعمدة الفقه الإسلاميّ، ولم يكن لمعارضته أي تأثير، وإذا أخذنا بالحسبان الآن حقيقة أنَّه في ذلك الوقت كان يوجد العديد من المسلمين الذين سمعوا القرآن عن لسان النبيّ، وأنَّ الإجراءاتِ التي قام بها عثمان المغفل قد قوبلت بمقاومة شرسة من أبطال الإسلام المتعصبين، وأنَّ هؤلاء زاد حنقهم عليه بسبب بعض رفاقه القدامى الطموحين، حتى قتلوه، وأنَّ الشيعَ المتعددة التي ظهرت خلال الحروب الأهليَّة التي اندلعت بعد

موته كانت ترحّب بأيّ حجة تمكنها من وصف خصومها بأنّهم كفار، إذا أخذنا كلّ هذه الحقائق، يكون علينا أن نعدّها شهادة قويّة في صالح قرآن عُثمان، أنَّه لم يتنصل أي طرف ـ ولم تكن شيعة علي مستثناة ـ من النص الذي صاغه زيد، الذي كان واحداً من أشد أتباع عثمان وعشيرته إخلاصاً، بل إنَّنا لا نجد حتى عند الشيعة إلا إشارات قليلة إلى وجود تململٍ من سلوك الخليفة في هذه المسألة.

إلا أنَّ هذا الجمع لم يكنْ خاتمة تاريخ نصّ القرآن، كانت الألفبائيَّة العربيَّة القديمة منقوصة للغاية، فهي لم تفتقدْ للإشارات التي تدل على أحرف العلة القصيرة والطويلة في بعض الأحيان، بل كانت تعبّر عن عدة أحرفٍ صحيحة باستخدام الرمز نفسه، فصيغ الأحرف المختلفة التي كانت متمايزة بوضوحٍ، أصبحت مع الوقت متطابقة، لذلك على سبيل المثال: لم يكن يوجد رمز واحد للتعبير عن حروف «ب، ت، ث»، وكذلك «ن» و«ي» إن وردا في بداية الكلمة أو في وسطها، مع أنَّ القارئ المطّلع تماماً على اللغة لم يكن يواجه أيّ صعوبة بوجه عام في معرفة أيّ لفظٍ قصده الكاتب، ولكن بما أنَّه كان يوجد العديد من الكلمات التي كانت تَسمح بأن تُلفظ بطرق مختلفة جداً، لم يكن من النادر أن يُشك في طريقة اللفظ، وكانت هذه الاختلافات في القراءات الممكنة عظيمة للغاية في البداية، ويبدو أنَّ العديد من القراء أرادوا اكتشاف طرق تلفظٍ جديدة، على شرط أن تكونَ موافقة للنص المبهم.

كان هناك أيضاً رخصة جدليَّة في الصِّيغ النحويَّة، لم تكن قد تقيدت بشكل كبير بعد، وبذل الكثيرون جهودهم لوضع تلفّظٍ قرآني أكثر إحكاماً ممَّا كان منتشراً في الحياة العامة أو في الأدب غير الدينيّ.

تباينت مدارسُ القراء للغاية، مع أنَّه لم يكن هناك اختلاف كبيرٌ في معظم الأحيان فيما يتعلق بمعنى الكلمات، ونال عدد قليلٌ منها تدريجياً سلطة مرجعيَّة خاصة، واختفت المدارس الأخرى، ويعدّ سبع من القراء مراجع رئيسة بوجه عام، لكن تضاءل هذا العدد تدريجيَّاً مع الزمن لأسبابٍ عمليَّة، فلا يستخدم اليوم إلا أسلوبان في القراءة، ذلك الشائع عموماً، والذي لحفص وذلك الذي لنافع والسائد في أفريقيا إلى الغرب من مصر.

إلا أنَّ هنالك علم قراءاتٍ شامل تماماً يُشار فيه إلى عددٍ من الأساليب الأخرى، وسرعان ما وضع استنباط الحركات، والتنقيط المخصص للتمييز بين الأحرف الصحيحة المتشابهة والعلامات الإملائيَّة الأخرى، حداً لتخميناتِ القرّاءِ العشوائيَّة.

عارض العديد من الغيورين إدخال هذه البدع على النص المقدَّس، إلا أنَّ التماسك الدينيّ كان عليه أن يخضع للضرورة العَمليَّة، ونجد أنَّ جميعَ هذه الإضافات في المخطوطات الصحيحة، بالإضافة إلى عناوين السور...إلخ، كانت مكتوبة بالحبر الملون، بينما تمثّل رموز الكتابة السوداء النص الأصل لعثمان بالضبط، إلا أنَّه من المحتمل ألا توجد نسخة طبق الأصل تماماً بهذا المعنى.

إنَّ التلاوة الصحيحة للقرآن فن صعب المنال حتى بالنسبة إلى العرب أنفسهم، فضلاً عن التلفظ المُصطنع المذكور أعلاه، وعلى القارئ الالتزام بترتيل شبه منغّم، ويوجد في هذه الأمور أيضاً اختلافات عظيمة بين المدارس المختلفة.

بالإضافة إلى وجود عددٍ لا يحصى من المخطوطات القرآنيَّة الحديثة في المكتبات الأوروبيَّة، توجد أيضاً مخطوطات أو قصاصات غارقة في القدم، ربما يعود بعضها إلى القرن الأوَّل للهجرة، إلا أنَّه لغرض ترميم النص، تعدّ أعمال الفقهاء القدامى المتعلقة بقراءته ونسخه أكثر أهميَّة من المخطوطات، والتي مهما كانت براقة كتابتها وزخرفتها، تبقى نتاجاً لنسّاخين غير مسؤولين.

إنَّ الأصلَ الذي دوَّنه عثمان نفسه، قد عُرِض في أرجاء العالم الإسلاميّ المختلفة، ويحتوي «مكتب مكتبة الهند» واحدة من هذه المخطوطات، وهي تحمل هامشاً يقول: «كتبه عثمان بن عفان» إلا أنَّ هذه، مزيفة على نحو واضح، بالرغم من أنَّها تعود إلى تاريخٍ قديم جداً، بالإضافة إلى تلك التي تدّعي بأنَّها كتبت بيدِ علي، إحداها محفوظة في المكتبة ذاتها، وفي الأزمنة الحديثة طُبع القرآن في كثير من الأحيان، وتمت طباعته بالطباعة الحجريَّة أيضاً في الشرق وفي الغرب.

بعد وفاة محمَّد بوقتٍ قصير، تبنى أشخاص محددون شرح القرآن، الذي كان جزء كبير منه غامضاً منذ البداية، وكانت أجزاء أخرى منه غير

مفهومة من دون معرفة الظروف التي نشأت فيها. لسوء الحظ، لم يكن أولئك الذين احتكروا هذا المجال صادقين للغاية، خلَّف ابن عباس، وهو ابن عمٍ لمحمَّد، والمصدر الرئيس للتفسير التقليديّ للقرآن على أسس دينيَّة وغير دينيَّة، عدداً من الأكاذيب، وقد اتبع على الأقلّ عددٌ من تلاميذه مثاله.

لقد تناولت هذه التفاسير المبكرة مفهوم الآية بمجملها وترابطها أكثر من مفهوم الكلمات المفردة، بعد ذلك، ومع انحدار المعرفة باللغة القديمة، وظهور الدراسات اللغويَّة، ازداد الاهتمام بتفسير المفردات. لقد وصلت إلينا بقايا عديدة جداً من هذه التفسيرات الدينيَّة واللغويَّة الأقدم من القرنين الأولين للهجرة، بالرغم من أنَّنا لا نمتلك تفسيراً كاملاً من تلك الفترة، ربَّما كان من الممكن إيجاد أكثر المواد التفسيريَّة في التفسير الضخم للغاية الذي ألفه الطبري (839-923.م)، الشخصيَّة المحتفى بها، والتي توجد منه نسخة شبه كاملة في المكتبة الخديويَّة في القاهرة، تفسيرٌ شهيرُ آخر هو تفسير الزمخشري (1075-1144.م)، والذي نقحه ناساو-ليس في كلكتا في عام 1859، لكن هذا العالم ببصيرته العظيمة ودقة فهمه الأكبر، مناسب جداً لقراءة أفكاره الكلاميَّة عن القرآن.

إنَّ التفسير الأكثر قبولاً للبيضاوي (ت. 1286.م) ليس أكثر من اختصار للزمخشري، وقد كُتِبت الآلاف من التعليقات على القرآن من المسلمين، ولبعضها حجمٌ هائل، وحتى عدد تلك الموجودة في

المخطوطات ليس صغيراً بأي حال من الأحوال ، وبالرغم من أنَّ جميع تلك الأعمال تحتوي على الكثير مما هو عديم الفائدة أو خاطئ، إلا أنَّها تعد مساعداتٍ لا تقدر بثمن لفهمنا الكتاب المقدَّس عند المسلمين، لا شك أنَّ أوروبيّاً غير متحيّزٍ سيرى في لمح البصر العديد من الأشياء بوضوح ممَّا يمكن أن يراه مسلمٌ مخلص واقعٌ تحت تأثير العصبيَّة الدينيَّة، إلا أنَّنا سوف نظلّ عاجزين من دون أدبيَّات المحمَّديين التفسيريَّة.

حتى العربيّ المسلم في أيامنا هذه ما يزال غير محتفظ إلا بفهم عديم الوضوح وغير مكتمل للقرآن، إلا أنّه كان قد درس تفسيره دارسة خاصة؛ لأنَّ الميزة العظيمة التي يفتخر بها الكتاب نفسهُ هي أنّه مبين للجميع قد اختفت مع مرور ثلاثة عشر قرناً، بالإضافة إلى ذلك، يُعتقد على العموم أنّه من غير المهم إن كان معنى الكلمة مفهوماً أو لا أثناء شعيرة قراءة القرآن، إن تم الالتزام بالتلاوة الصحيحة.

ما يزال يوجد الكثير ممَّا يجب على الدراسات الأوروبيَّة إنجازه لإيجاد التفسير الصحيح للقرآن، نريد على سبيل المثال: مناقشة وتصنيفاً شاملاً لجميع العناصر اليهوديَّة في القرآن، وقد وُضعت بالفعل مقدّمة تستحق الثناء في مقالة غايغر الفتيّة:

"Was hat Mahomet aus dem Judenthum aufgenommen?"

ما ينقصنا بوجه خاصٍ هو تفسير عميق ينفذ باستخدام أساليب العلم الحديث وموارده، ويبدو أن لا لغة أوروبيَّة بإمكانها حتى التباهي بترجمة تفي بالمتطلبات العصريَّة تماماً، وأفضل ترجمة هي باللغة الإنجليزيَّة، حيث لدينا ترجمة سَيل (طُبعت مراراً) التي أعيد صياغتها كثيراً، ولكنّها ـ بالنسبة لزمنها ـ مثيرة للإعجاب، وتلك التي لرودويل (1861)، التي تحاول تقديم المقاطع في تسلسل زمنيّ، وتلك التي لبالمر (1880)، الذي اتبع بحكمةٍ الترتيب التقليديّ، إنَّ المقدمة المرفقة بترجمة بالمر ليست بأيّ حالٍ مسايرة لآخر المستجدات البحثيَّة، وإنَّ قدراً لا بأس به من المقتبسات عن القرآن تُرجم ترجمةً جيدة في كتاب إدوارد وليام لين «Selections from the Kur'an».

إلى جانب التعليقات على القرآن كله، أو على أجزاء ومواضيع خاصة فيه، يمتلك المسلمون أدباً كاملاً فيما يتعلق بكتابهم المقدَّس، وتوجد أعمال تدور حول تهجّي ألفاظ القرآن والتلفظ الصحيح، وأعمال عن جامل لغته، وعن عدد آياته، وكلماته، وحروفه...إلخ، بل إنَّ هنالك ما يمكن أن يسمى في وقتنا الحاضر بـ«المقدمات التّاريخيَّة والنقديَّة»، فضلاً عن ذلك، يرتبط أصل فقه اللغة العربيَّة ارتباطاً وثيقاً بتلاوة القرآن وتفسيره.

إنَّ عرض أهمية الكتاب المقدّس الإسلاميّ لحياة المسلمين الفكريَّة بأسرها، معناه ببساطة كتابة تاريخ هذه الحياة نفسها، لأنَّه لا توجد ناحية لم

يتم فيها الشعور بتأثيره واسع الانتشار، ولكن للأسف ليس مفيداً دوماً، وتوقير المسلمين غير المحدود للقرآن يبلغ ذروته في الاعتقاد (الذي ربَّما ظهر في زمنٍ مبكر من خلال تأثير عقيدة المسيحيين لكلمة الله الأزليَّة) بأنَّ هذا الكتاب هو كلام الله، أي أنَّه صادر من الله، ومن ثمَّ فهو أزليّ وغير مخلوق.

قُبلت هذه العقيدة من جميع المُحمَّديين منذ بداية القرن الثالث، واحتج عليها بحماسٍ شديد بعض الفقهاء، ومن غير المعقول الإعلان أنَّ كتاباً مؤلفاً من كلماتٍ وأحرف غير ثابتة، ولديه الكثير من الأشكال المتباينة، كان إلهيَّاً تماماً، لكن ما عساها تكون فائدة سفسطائيات علماء الدين وميزاتهم، إن لم يكونوا قادرين على إزالة هذه التناقضات وإدانة خصومهم بالابتِداع؟[1]

(1) يمكن استشارة الأعمال الآتية على نحو خاص: ويل، Einleitung in den Korân، 2nd ed. 1878؛ ثيودور نولدكه، Geschichte des Qorân، غوتنغن، 1860؛ و«حياة محمد» لموير وشبرنغر.

الفصلُ الثّاني

الإسلامُ(1)

نصَّبَ الإمبراطورُ هرقل في 14 أيلول عام 629 الصليبَ الحقيقيّ في القدسِ مجدّداً، إذ هزمَ الفرسَ بعد صراعٍ مستميت، وأجبرَهم على إعادةِ هذه الآثار الأكثر قدسيَّة، التي أخذوها عند غزوهم للأراضي المقدَّسة، لقد كان يوم نصرٍ للعالم المسيحيّ أجمع، إذ ما يزال يُشَار إليه في التقويم المسيحيّ بـ «عيد ارتفاع الصليب»، وفي الوقت ذاته من هذا الاحتفال المذهل بانتصار العالم المسيحيّ على غير المؤمنين، ربَّما نفترضُ أنَّ الإمبراطورَ تلقى أنباءً تفيد أنَّ جيوشَه العربيَّة خارج الأردن قد تعرَّضتْ لهجومٍ من جماعةٍ صغيرةٍ من داخل البلاد، نجحوا في درء الهجوم العنيف بصعوبة، ومن غير المرجَّح أن تكونَ الأخبارُ قد صدمته لأنَّها تدلُّ على شيء خطير جداً، لكنَّه كان اعتداءَ المسلمين الأوَّل، وسرعان ما تبعته هجمات أخرى، وفي غضون سنوات قليلة، سُلِخت فلسطين والعديد

(1) نُشِر في الأصل في «Deutsche Rundschau»، 9، (1883)، ص 378، والصفحات التي تليها.

من المقاطعات الأخرى إلى الأبد من الإمبراطوريَّة الرومانيَّة، التي ينتمون إليها منذ سبعة قرون، كما دُمِّرت الإمبراطوريَّة الفارسيَّة، وحقَّق دينٌ جديدٌ وشعبٌ جديدٌ سطوةً راسخةً في الأراضي المسيحيَّة الأصليَّة والزرادشتيَّة، إذ لم يُسجَّل أيُّ انقلابٍ بهذهِ الضخامةِ والسرعةِ في التاريخ.

لم يكنْ مؤسّسُ هذا الدين الجديد، محمَّد بن عبد الله، بطلاً عسكريّاً، لكنَّه أصبحَ أميراً وفاتحاً، تحت ضغط الظروف، وضرورات الأفكار التي دفعته قدماً إلى أبعد بكثير ممَّا أمكنه أن يتخيل، فالمتحمس الهستيريّ، الذي أدرك الدعوة للتعريف «بوحدانيَّة الله»، أُجبِرَ على حياة الجهاد بسبب معارضة أنسبائه وجيرانه، وقد منحه إيمانه الراسخ بأنّ نورَه جاء من الله القوّة والثقة، وسَمَا به عن كلّ تحيز وشك.

لقد تأثَّرتْ طبيعةُ الدينِ الجديدِ بقوَّة بالروح الرجوليَّة لبعض المؤمنين والأبطال الأوائل؛ إنَّ صفات العرب الحميدة والسيئة، الذي نشأ بينهم، وأُرسِل لهم في المقام الأوَّل، بطابع مميز على نحو جليّ.

قد يُشك فيما إذا كانتْ التعاليمُ الأصليَّة لأيّ مؤسّس آخر لدين جديد معروفة لنا تماماً مثل تعاليم محمّد، بالنسبة إلى الكتاب المحمَّديّ المقدّس، فإنَّ القرآن، الذي يتألف بأكمله من وحيه الخاصّ، أُنزِل باسم الله؛ ويوجد من بين أقواله المنطوقة التي تناقلتها الأحاديث، والتي تخلّلها الكثير من التلفيق، الكثير ممَّا هو حقيقيّ، إذ يمكننا إكمال القرآن بمساعدتها في كثير من النقاط، كما عدَّ المحمَّديون القرآن والسنّة؛ أي

«التعاليم» المأخوذة عن أحاديث النبي وأفعاله، مصادرَ دينهم.

عمليّاً، لا يوجدُ شيء أصليّ يمكن العثور عليه في الأجزاء المختلفة من عقيدة محمَّد، لقد تجاوزَ العربُ في ذلك الوقت وثنيتهم البدائيَّة، وبحكم قوَّة العادة من دون ارتباط حقيقيّ، ولأنَّهم كانوا شعباً شديدَ المحافظة، تمسَّكَ العربُ بقوّة بالممارسات القديمة، ولاسيَّما أنَّ الأفكار المعزولة التي نشأت في المسيحيَّة أصبحتْ منتشرةً على نطاقٍ واسعٍ من خلال الشعراء المُتجوّلين، إذ كان الكثيرُ من العربِ مسيحيين في ذلك الحين، ومن الصحيح أنَّ مسيحيتهم كانتْ فضفاضةً عليهم فقط؛ لأنَّ أرقى عناصر ذلك الدين بلا هيئة، إضافةً إلى ذلك، وُجِد العديدُ من اليهود في المنطقة العربيَّة الذين أنتجوا أحياناً، كما هو الحال في الحبشة، الكثير من المرتدين، لكن لم تناسب القوانينُ اليهوديَّةُ الصارمةُ والمزعجةُ طبيعةَ السكان المتفاخرين والجامحين في الصحراء العربيَّة إلا بقدر ضئيل مثل المذاهب الصوفيَّة والأخلاق المثاليَّة للمسيحيَّة، وقد أخذ محمَّد عن الديانتين، ولا سيَّما عن اليهوديَّة، العناصر التي علَّمته الغريزة وليس التفكير أنَّها تلائمُ بني جِلدَتِه، فكانت المحاورُ الرئيسة لعقيدته هي تطوير إضافيّ لليهوديَّة، إلا أنَّها أبسط وأكثر ابتذالاً؛ بوجه عام، هي أقرب بكثير إلى دين العهد القديم من مسيحيَّة الكنيسة.

إنَّ فكرةَ محمَّد عن الله هي في الأساس فكرة العهد القديم، إلا أنَّه يولي أهميَّة أكبر للقدرة الإلهيَّة المطلقة والسيادة الاستبداديَّة، وأهميَّة أقلّ

للقداسة الإلهيَّة، إذ يعزو إلى الله كثيراً من السمات البشريَّة، لكنَّها لم تعدْ تتمتع بالسحر الساذج والشاعريّ الذي تحوزه الكثير من تجسيدات العهد القديم، فالله صنع كلّ شيء وقرّره، وعلى الإنسان أن يخْضِعَ نفسه على نحو أعمى؛ لذلك سمِّي الدين بـ «الإسلام» («الاستسلام»)، ومعلمه «مسلم» («من يسلِّم نفسه»).

كان لدى محمّد أقوى كراهية لتعاليم الثالوث وبنوة المسيح الإلهيَّة، صحيح أنَّ معرفته بهذه العقائد كانت سطحيَّة، حتى بنود قانون الإيمان التي أشارت إليهم لم تكنْ معروفة له تماماً، لكنَّه شعرَ بحقّ أنَّه كان من المستحيل تماماً مواءمتها مع توحيد سامٍ أصيلٍ بسيط، ولعلّ هذا كان الرأي الوحيد الذي أعاقه عن اعتناق المسيحيَّة.

وفقاً للقرآن، أفصحَ اللهُ عن إرادته من خلال الأنبياء، الذين أرسل العديد منهم على مرّ الزمن إلى العالم، من المسيح وحتى زمن محمّد، كان من واجب الناس أن يتبعوا المسيح وإنجيله، وقد تكبّد اليهودُ خطيئةً

* يشير التجسيد إلى الحالات التي يستخدم فيها الكتاب المقدَّس المظهر البشريّ لوصف الله، إذ يرد في يوحنا (4: 24): «اَللَّهُ رُوحٌ، وَالَّذِينَ يَسْجُدُونَ لَهُ فَبِالرُّوحِ وَالْحَقِّ يَنْبَغِي أَنْ يَسْجُدُوا»، وتعني عبارة «اَللَّهُ رُوحٌ» أنَّ الله ليس له جسد ماديّ، ومع ذلك، هناك العديد من المقاطع في الكتاب المقدَّس (العهد القديم) تصف الله بأنَّه يحتوي على أجزاء جسديَّة بشريَّة مثل: امتلاكه لـ «ذراعين» (سفر الخروج 6: 6 ومزمور 89: 10) أو «يدين» (سفر الخروج 7: 5) أو «وجه» (لاويين 20: 6) أو «عيون» (تثنية 11:12) أو «أقدام» (أشعياء 66: 1)، وهي لغة يمكن للقارئ فهمها على نحو أفضل، لكنها تتعارض أيضاً مع ما ورد في يوحنا 4:24. (تعليق المترجم)

جسيمةً برفضهم له، إذ كان يسوع أعظم من جميع الأنبياء قبله، بيد أنَّ الوحي الأخير ظهر لأوَّل مرَّة من خلال محمَّد، علَّمت الكتابات المقدَّسة السابقة تعاليم القرآن نفسها، وشهدت لمحمَّد؛ إلا أنَّ اليهودَ والمسيحيين قد زيفوها، فالشرائع التي حدَّدها الله من خلال الأنبياء لا تنسجم بالضرورة مع بعضها البعض؛ لأنَّ الله يغير وصاياه متى يشاء، حتى في القرآن نفسه، فهو أحياناً يُلغي سُنَنه التي سبق أن وضعها في ذلك الكتاب بالذَّات؛ إذ محمّد ليس إلا بشريّاً ضعيفاً، مختاراً من الله فحسب، خاضعاً للخطيئة، ومن دون هبة صنع المعجزات التي أُسبغتْ على الأنبياء السابقين، وسرعان ما فُسِّر هذا العجز الأخير الذي عُبِّر عنه بوضوح في القرآن، كما هو متوقع، من خلال أتباعه، وبناءً عليه، رُبِطت العديد من المعجزات به.

يجازي الله الحسنات ويعاقب السيئات، غير أنَّه رحيم، يسهل استرضاؤه بالتوبة، لكن سيكون عقاب الأشرار غير التائبين مخيفاً، إذ عُرِضت فظائع الجحيم بوضوح؛ بإمكاننا رؤية كيف ابتلى فكرهم الرسول نفسه ابتلاءً شديداً، فوفقاً للسوابق المسيحيَّة، يتصوَّر محمَّد الجحيم كنار، وفي وصفه للفردوس السماويّ، أو «الجنة» أيضاً، يستحوذ محمَّد على تصورات من العهدين القديم والجديد، لكنَّه يصوّر متاعها وفقاً لتخيله، فلا يمكن فهم وصفه لمجد الأولياء أعلاه على نحو صحيح إلا حين يتذكر القارئ قحل موطن محمَّد الأصليّ وأسلوب حياة أبناء وطنه البسيط للغاية، وقد كانت العذارى ذوات العيون البرَّاقة اللواتي

يهبن صحبتهن للصالحين في الجنة من ابتكار الطبيعة الحسيَّة، استحوذتْ التصوراتُ البدائيَّةُ عن الجحيم والسماء على الخيال العربيّ، ولا شك أنَّها أسهمتْ على نحوٍ كبيرٍ في انتشار وتأسيس الإسلام، كما كان للتصورات الأخرويَّة الأخرى، حول القيامة ويوم الدينونة، دور ذو أهميّة في القرآن، إذ ترتبط كلّها بالأفكار القديمة، ولا سيَّما الأفكار التي استعارتها اليهوديَّة من الفرس، ومن المسيحيَّة على نحو جزئيّ أيضاً.

لعلَّ الخوفَ من يوم الدينونة هو السبب الأكثر أهميَّة في أن يصبحَ محمَّدٌ صاحبَ رؤية ونبيّ، كما أنَّ القرآنَ لديه، الكثير ليقوله عن الملائكة والشياطين، وإلى جانب هذه الشخصيَّات «الجن» أيضاً، المأخوذة عن معتقدات شعبيَّة عربيَّة، ولكنَّها مرتبطة بمفاهيم يهوديَّة متأخرة، لم تسببْ التناقضاتُ الطفيفة التي تحدث على نحو طبعيّ في هذه الأساطير والأوهام سوى القليل من الصعوبة لبراعة المفسرين، ناهيك بإيمان الجماهير البسيط.

إنَّ قيَمَ الإسلامِ ليستْ صارمةً أو جادةً مثل قيَم اليهوديَّة، فقد أصرَّ محمَّد، في الحقيقة، على التصرف والسلوك الفاضلين، وهو همَّامٌ في إدانته للرذيلة: يحثُّ على التعامل الشريف، والصدقة، والتسامح، وما إلى ذلك، ويطلب من الرجال أن يُبقوا الله وعذاب القبر نصب أعينهم، لكنَّه لم يكنْ صارماً، إذ تعترف عقيدته المتغطرسة في العقاب، الذي يحكم قواعد السلوك، بتطبيق المبادئ التجاريَّة: يمكن تجنب عواقب الخطايا عن طريق

كفارات محدَّدة؛ أي يمكن للفرد، في ظلّ ظروف معيّنة، أن يتخلّصَ من واجب الوفاء بالالتزام، وحتى الحنث باليمين يمكن تعويضه بالأعمال الصالحة، ويمكن أن يُنكَرَ الإيمان بالقول عند الضرورة الماسَّة (قارن متى، الإصحاح 10: الآيتان 32، 33)؛ ومقابل حريَّة الاستعانة بهذا التسويغ، لقد كان المحمديّون، في الحقيقة، محميين بفخرهم وقوَّة إيمانهم، فالإسلامُ دينٌ عمليّ على نحو كامل، لا يحتم تفسير المطالب المتشدّدة جداً (مثل تلك المطالب المذكورة في متى، الإصحاح 5: الآيات 33–41) من خلال تفسيرات زائفة، كما أنَّ القرآن يعزِّي المضطهدين والمتألمين، لكنَّه عربيّ جدّاً ـ أو، لنقل، فطريٌّ وذكوريٌّ جداً ـ لتأكيد أنَّ الفقراءَ والمظلومين سعداء في أنفسهم، إضافةً إلى ذلك، يعلن أنَّ الأشياءَ الأرضيَّةَ كلّها باطلة حقاً، لكنَّه يأخذُ في حسبانه على نحو كبير الرغبات والأهواء البشريَّة، ويضع أحكاماً محدَّدة حول الممتلكات والبضائع، وإن كان النبيُّ قد قُوبِل بتقديرِ مباشر في مدينته الأمّ، فلعلّه أسَّس مجتمعاً رهبانيّاً متصوفاً، لكن، مدفوعاً بضرورة أن يصبحَ حاكمَ دولةٍ محاربةٍ، توجّب عليه أن يتَّبعَ مساراً آخر، إذ بعد بعض التردد، دعا للجهاد ضد غير المؤمنين بحدّ ذاتهم في نهاية المطاف؛ لا خيار أمامهم إلا قبول الإسلام أو الإبادة، وما زال مشروعاً لمعلمي الديانات النبويّة القديمة؛ أي اليهود والمسيحيين في المقام الأوَّل، العيش بوصفهم رعايا مقابل دفع جزية، فدعوة المسلم، في هذه الحياة وفي المستقبل، هي أن يحكمَ العالم.

لا يوجد في الإسلام شعائر مقدَّسة باطنيَّة، على الرغم من وجود

عدد من الشعائر الظاهريَّة، فقد أعطى محمَّد في البداية القيمةَ العُظمى لممارسات التكفير عن الذنوب الصارمة، مثل اليقظة والصّوم، وشعر بالراحة كثيراً على نحو تدريجيّ، سواء بالنسبة له أو لأتباعه، لكن لا يمكن تصور دين شرقيّ خالٍ من أيّ كبح للشهوات من هذا النوع تماماً، وبناءً عليه فُرِض صيام شهر رمضان؛ أي إنَّه يمنع الأكل والشرب منعاً باتاً طوال الشهر، ما دامت الشمس فوق خط الأفق، ويُعدّ هذا عبئاً ثقيلاً في الطقس الشرقيّ الحارّ، ومن السهل التصديق أنّه في شهر الصيام، قرب نهاية اليوم، يفكر غالبيَّة المؤمنين في مِتاع الليلة القادمة أكثر من تفكيرهم في الله والآخرة، وما تزال الصلاةُ أهمّ من الصوم، مثلما هو الحال مع المسيحيين الشرقيين جميعهم، إذ فُرِض عددٌ معيّنٌ من الصلوات اليوميَّة على رجال الدين، وجزئيّاً على عامَّة الناس، لذلك حدَّد محمّد مرة أخرى، بعد بعض التردد، لجميع المؤمنين أنَّه لا بدَّ من وجود خمس «صلوات» يوميَّة، تختلف هذه «الصلاة» جوهريّاً عمَّا نسميه صلاة، وهي تتألف من سلسلة ثابتة من الركعات والسجدات والسلوكيَّات الأخرى، مصحوبة بتلاوة بعض العبارات الدينيَّة، ولا يُحرَّم على المصلي التضرع لله بكلماته الخاصَّة في أوقات أخرى أو بطرق أخرى طبعاً، لكن لا يعدّ القيام بذلك إجراءً رسميّاً أو إلزاميّاً؛ إذ يسبق الوضوء الصلاة، ويمكن استبدال الماء بالفرك بالرمل[1] حين تشحّ، وهي سلعة نادرة في المنطقة العربيَّة،

---

(1) عُرِف هذا الإبدال بين اليهود أيضاً، ومنهم افتُرِضتْ بعضُ العوامل المخفّفة من المهمّة في وقت السفر أو ظروف الخطر.

إنَّ المشاركةَ في صلاة الجماعة، التي يؤمها الإمام، هي أكثر استحقاقاً من أداء الصلاة فرادى، ينبغي أن تكونَ صلاةُ الجماعة يوم الجمعة، على نحوٍ خاص، إذ يُفرَد للعبادة العامَّة بوجه خاص، إلا أنَّه يُعدُّ في نواحٍ أخرى يوم عمل؛ إنَّ راحةَ يوم السبت [السَّبْت المقدَّس اليهوديّ] غير معروفة للإسلام، وقد ساهمتْ صلاة الجماعة وسلوكيَّاتها في تحقيق الاستقرار للإسلام، فأصبحتْ الجموع، بينما يفعلون ما هو ضروريّ لخلاص أرواحهم، مدرَّبين على عادة اتّباع إمام بصرامة، ومثل ما أشار فون كريمر، كان المسجد بمنزلة ساحة تدريب للمؤمنين المحاربين في صدر الإسلام.

شعائرُ الحجّ:

يعدُّ الحجُّ إلى مكة بقاءً لافتاً للوثنيَّة العربيَّة، إذ يوجد في مسقط رأس محمَّد معبد يسمّى الكعبة («الموت»)، مع شيء من العبادة القديمة؛ «الحجر الأسود»، ثم أصبح هذا الحرمُ تدريجيّاً مركزَ الحجّ للجزء الأكبر من المنطقة العربيَّة، وفي هذا الإطار، لقد طُوّرتْ تجارةٌ نشطةٌ، لا بدَّ أنَّها كانتْ مفيدةً جداً لقاطني مكة؛ أي قبيلة قريش، والأكثر أهميَّة بالنسبة لهم هو أنَّ أراضيهم بأكملها عُدَّت مقدَّسة ومصونة، وأصبح لديهم أفضل الفرص للدخول في علاقات وديَّة مع مختلف القبائل البدويَّة، وبذلك تمكنوا من الحفاظ على حركة مرور القوافل مع أراضي الحضارة القديمة وراء الصحراء والبدو النَّهَّابين، لم يحقّقوا النمو بهذه الطريقة فحسب، بل

اكتسبوا تفوقاً فكريّاً كبيراً على غيرهم من العرب.

لقد نشأ محمَّد نفسه، بوصفه رجلاً من قريش، على التقديس الورع للكعبة والحجر الأسود، وبصحيح العبارة، كان هذا التقديسُ مخالفاً لمبادئ دينه، لكنَّه استطاعَ تعديلَ الأمور من خلال نظريته القائلة إنَّ هذه الأشياء المقدَّسة قد بناها إبراهيم، وإنَّ الوثنيين أساؤوا استخدامها فقط، يحتمل أنَّه كان يتبع في هذا الرأي سلفاً مكيّاً حدَّثَه اليهود أو المسيحيون عن إبراهيم وإسماعيل، لكن لم يعرفْ وثنيو مكّة شيئاً عن هذه الشخصيَّات أو أيّة شخصيَّات أخرى من العهد القديم، يبدو أنَّ الاحتفاظَ بهذا الحرم من جهة محمَّد لم يُعزَ إلى الحسابات بقدر ما يُعزى إلى عادة دينيَّة متجذّرة بعمق، ويتبيَّن من هذا، من بين أمور أخرى، أنَّه بين هجرته واحتلال مكة، كثيراً ما أعرب عن حزنه لاستبعاده من المشاركة الحرَّة في الاحتفالات هناك، وحين دخل مكة بوصفه فاتحاً في نهاية المطاف، تخلَّص من علامات عبادة الأصنام الصريحة كلّها، ثم ثبت أخيراً، في رحلة الحجّ الأخيرة قبل وفاته بمدّة وجيزة، الشعائر ـ بعضها غريب جداً ـ الواجب اتّباعها، إذ كان كلّ شيء وثنيّ إلى زوال، أو إن بقيت أشياء مختلفة من هذا النوع، فإنّها غير مفهومة؛ أي غير مؤذية، ومع ذلك، لم يُزَل حجرٌ واحدٌ من حجر الذنوب ـ تقديس الصنم القديم ـ الحجر الأسود، التقديس الذي لا يمكن لبعض المسلمين الثابتين أن يُلزموا أنفسهم به إلا على مضض، والذي في أوقات لاحقة يستهزئ به المؤمنون الأقلّ إخلاصاً، من واجب كلّ مسلم أن يشاركَ في الحج السنويّ بحسب قدرته، لكن هذا لا يتعارض

مع هدف محمّد (إذ كان مستعداً على الدوام لأخذ الصعوبات العمليَّة في الحسبان)، إن أُكِّد بشدَّة على شرط «بحسب قدرته» في الممارسة، فإنَّ قلَّةً من المسلمين نسبيّاً ينضمون إلى الرحلة من الأراضي المحمّديَّة البعيدة، مع هذا، يعدُّ الحجُّ ركناً أساسيّاً من أركان الإسلام، ففي مكَّة ما يزال أكثر المسلمين المتدينين يجتمعون من سنة إلى أخرى خارج المناطق النائية مثل تركستان، والهند البريطانيَّة والهولنديَّة، والمستوطنات التركيَّة، والمغرب، ومنطقة نجنرتيا [أي بلاد السودان]، ويتبادلون الأفكار والآراء المسبقة، وهي عادة تساعد في الحفاظ على وحدة الإيمان حتماً، وممَّا له أهميَّة خاصَّة أنَّ العديدَ من الحجّاج الأكثر حماسةً وتعلماً يمكثون في مكَّة على نحو دائم، إنَّهم يعملون من هذا المركز على تعزيز الدين الحنيف، والعداء ضد المشركين جميعهم (ولاسيَّما الأوروبيين).

إنَّ الختانَ من مخلفات الوثنيَّة الجاهلة المتوارثة عن العصور القديمة السحيقة، لم ينص عليه القرآن على نحو خاصّ، لكنَّه يعدُّ أمراً مسلّماً به كما جرتْ العادة عند العرب جميعهم، بيد أنَّه، من الناحية النظريّة على الأقلّ، ليس جزءاً أساسيّاً من الدين، كما هو الحال في اليهوديَّة.

وعلى غرار اليهود، يولي محمَّد الزكاة قيمةً عاليةً، مع ذلك، لقد غيَّر تدريجيّاً تقدمات المودَّة الطوعيَّة إلى ضريبة رسميَّة وباهظة إلى حدّ ما، لم يُدعَم الفقراء منها فحسب، بل غُطّيتْ نفقاتُ الحكومة أيضاً.

لم تكنْ قوانينُ محمّد المتعلّقة بالطعام معقّدةً مثل قوانين اليهود؛

إذ إنَّ الحيوانات التي ربّما لا يأكلها المسلم، سواء أكان ذلك بأمرٍ من محمَّد أو بموجب حكم لاحق، هي في الغالب التي ينفر منها الناس على نحو طبعيّ (على سبيل المثال آكلات اللحوم)، ولا يوجد ما هو نجس كليّاً سوى الخنزير والكلب، إضافةً إلى ذلك، لا يجوز أكل إلا تلك الحيوانات التي تُذبح ذبحاً حلالاً مع عبارة: «بسم الله الرحمن الرحيم»، فالمسلم، مثل اليهوديّ، وبالمعنى الدقيق للكلمة المسيحيّ أيضاً (أعمال الرسل، الإصحاح الخامس عشر: الآيتان 20، 29، والإصحاح الحادي والعشرون: الآية 25)، فُرِضَ عليه الامتناع عن الدم، ولكن في حالة تعرضه لخطر الموت بسبب الجوع، يُسمح له باستخدام أيّ طعام، كما حُرِّم الخمر، لقد قصدتْ الهيئةُ التشريعيَّة تضمين المشروبات المسكرة جميعها تحت هذا المسمى، لن ينكرَ أيّ مراقب محايد أنَّ هذا التشريع، بقدر ما انتُهك، فقد أثبت أنَّه نعمة حقيقيَّة على بلاد الإسلام جميعها، ليس مؤكداً إذا ما كان حظر لعبة الحظ العربيَّة المفضلة (الميسر)، التي استُخدمت فيها أسهم عبثيَّة بمثابة قُرَعٍ، يهدف إلى تضمين أشكال المقامرة جميعها، لعلَّ محمداً وضع نصب عينيه الممارسات الوثنيَّة فقط، أو التبذير، التي ارتبطت بالميسر.

إنَّ الأوامرَ والنواهي الشعائريّة في الإسلام عموماً لا تتحمّل القسوة المفرطة على الحياة الشرقيَّة، التي تتحرّك على أيّ حال بنمطٍ رتيبٍ إلى حدّ ما في صيغ ثابتة، يوجد القليل من الآثار عن الوسواس القلقيّ الذي تتحدَّث به اليهوديَّة عن «الطاهر» و«النجس» و«الشرعيّ» و«غير

الشرعيّ»، حتى في كتابات علماء الدين المسلمين المتأخرين، ناهيك بمحمَّد نفسه، أو حياة أتباعه حتى الآن.

الدين وشريعة الدولة ليسا مفصولين في الإسلام، ووفقاً لذلك سيكون هنا بصحيح العبارة المكانُ المناسبُ للنظر في المنظومة الكاملة للقانون المدنيّ والجنائيّ الذي قدَّمه محمَّد في القرآن أو في أقواله المنطوقة، ويتبع في قراراته، التي كانتْ في كثير من الأحيان وليدةَ حالةٍ معيّنة أمامه على نحو محدَّد في تلك اللحظة، العادات العربيَّة اليهوديَّة على نحوٍ جزئيّ، لكنَّه غالباً ما يتبع توجيهات عقله، كان من المستحيل إلغاء الثأر بالدم تماماً، ربَّما لم يكن ذلك في ذهنه أبداً؛ إذ ألزمه باحترام أشكال معيّنة فقط، فلم يكن المنفذ من يقرّر إذا ما كان القاتل سيموت أم أنَّه سيفدي نفسه بدفع ديَّةٍ، بل أقرب أقرباء المذبوح.

إنَّ أوجه الخلل التي يمكن أن تنتجَ حين يحاول الفردُ على نحوٍ دائم إصلاحَ نظامِ الكنيسة والدولةِ وفقاً لتقديره الشخصيّ ارتجاليّاً، تتجلّى بوضوح فريد في التقويم الإسلاميّ، إذ عاش العرب، على غرار الغالبيَّة العظمى من الشعوب القديمة، سنة مدتها اثنا عشر شهراً (قمريّاً) حقيقيّاً؛ بذلك وبقدر ما يتطلَّب الأمر على ما يبدو، جعلوا السنة الشمسيّة متوافقة تقريباً مع إقحام الشهر الثالث عشر، ويصح القول، لم يكن الإقحام متقناً جداً، مع ذلك لم تؤدّ أيّة اختلالات بسيطة في التقويم قد نتجتْ عن ذلك إلى أيّة متاعب عمليّة في العلاقات البسيطة للحياة في تلك الأيام، لكن

محمَّد، الذي اعترض إمَّا على عدم مساواة السنة، مرة كانت اثني عشر شهراً ومرة ثلاثة عشر شهراً، وإمّا على الصلة التي توجد بين ترتيب التقويم هذا والنظام الوثني، خطر بباله للأسف قبل وقت قصير من وفاته أن يأمرَ بأن يكونَ للمسلمين سنة قمريَّة متغيرة تتألف من اثني عشر شهراً قمريّاً، من دون أيَّة إقحامات مطلقاً، وهكذا فإنَّ كلَّ سنةٍ مُحمّديّة أقصر بنحو عشرة أيام من السنة الشمسيَّة التي تحكم مجرى الطبيعة؛ إذ تنتقل الأعياد المُحمّديّة تباعاً عبر الفصول جميعها،[1] وعليه يجب على الفلاح أن يتزوَّدَ في كلّ مكان بتقويم ثانٍ (مسيحيّ أو فارسيّ)، يستندُ إلى السنة الشمسيَّة، بالإضافة إلى التقويم الكنسيّ، فمسلم في الثالثة والثلاثين ليس أكبر من مسيحيّ في الثانية والثلاثين، ويعدُّ تحويل التواريخ المُحمّديّة إلى تواريخ يوليانيَّة «روميَّة» أو (ما هو أسوأ) غريغوريَّة بالنسبة إلى الطالب الذي لا يملك الجداول المطلوبة في متناول اليد مهمَّة شاقة للغاية.

لقد تركَ محمَّدٌ مكانةَ المرأةِ في الأساس حيث كانت بين العرب، حدَّ من تعدّدِ الزوجاتِ إلى حدّ ما، وجعل فصل النساء عن الرجال أكثر صرامة، لكنَّ الإسلامَ غيّر للأسوأ حال كثير من النساء في تلك البلدان التي اختفى فيها تعدد الزوجات فعلاً، ولم يكن الطلاق سهلاً أو شائعاً كما هو الحال بين العرب؛ أي يستطيع الزوج خلعَ الزوجة في أيّ

(1) للمرء رؤية مدى صعوبة فرض صيام عند التتار في قازان حين يحلُّ شهر رمضان في الصيف مع يومٍ مؤلفٍ من ثماني عشرة ساعة، على عكس سهولته حين يحلُّ في وقت الانقلاب الشتويّ.

وقت، فإنَّ لحظةَ سوء المزاج التي تؤدي في كثير من الأحيان إلى الطلاق، هي، بالإضافة إلى ذلك، شرّ أسوأ بكثير للمجتمع الإسلاميّ من تعدد الزوجات (إنَّه أمر ليس واسع النطاق)، أو الإذن الذي يمنحه لاتخاذ العبيد من الإناث كمحظيات.

لقد أظهر البدو، آنذاك، وما زالوا يظهرون، احتراماً نبيلاً للمرأة التي لا حول لها ولا قوَّة، ومع ذلك وضعوا الجنسَ الأضعفَ في مستوى منخفض لدرجة أنَّهم لم يتورّعوا عن وأد الفتيات المولودات حديثاً وهنّ على قيد الحياة، وقوبلت هذه الهمجيَّة؛ التي ربَّما لم تحدثْ مطلقاً في المدن الأكثر ازدهاراً، بمعارضة محمَّد في بداية مسيرته، وقمعها بعد ذلك كليّاً، واعتادَ العربُ في حروبهم أن يأخذوا زوجات وأطفال أعدائهم بوصفهم أسرى أو عبيداً، توقف هذا تماماً بين المسلمين، ومن ناحية أخرى، بتخليه عن «الأيام الحرم» للشهر الفضيل، ألحق محمَّد بلاده ضرراً خطير، إذ كانتْ رغبته هي إنهاء جميع الحروب بين أتباعه، لكنَّه كان الأقلّ نجاحاً في هذا الأمر من بين الجميع في المنطقة العربيَّة؛ إذ لم تتوقفْ الخلافاتُ حتى يومنا هذا من عام إلى آخر.

لم تخطرْ فكرةُ إلغاء العبوديَّة ببال محمّد كثيراً مثل ما خطرتْ للرسل، لكنَّه أعلن أنَّ عتقَ العبيدِ عملٌ جديرٌ بالتقدير، وأعطى العبيدَ ضماناً محدَّداً في نظر القانون.

قوَّةُ الدينِ الجديد:

إنَّ مرتبةَ الإسلامِ في شكلِهِ الأصليّ ككلّ مرتبة أدنى بكثير من المسيحيَّة البدائيَّة، ولا ينبغي مقارنته في نواحٍ عديدة مع المسيحيَّة التي كانتْ وما تزال سائدةً في الشرق، لكن في نقاط أخرى، تفوَّقَ الإيمانُ الجديد، البسيط والمتين، بقوَّة شبابه، على دين المسيحيين السوريين والمصريين بكثير، إذ كان في حالة ركود، ينحدر أكثر فأكثر وعلى نحو مطَّرد إلى الهمجيَّة، وفوق كلّ شيء، أعطى الإسلام، ويُعطي، أولئك الذين يجاهرون به شعوراً بالثقة يكاد لا يقدّمه أيّ دين آخر، فالمسلم يتفاخر بكونه مسلماً، إنَّه مقتنعٌ أنَّ الله يفضله على سائر البشر الآخرين، الذين يحتقرهم وفقاً لذلك بوصفهم وقود جهنم وحطبها؛ إذ فُرِض على المسيحيّ الدخول إلى حجرته للصلاة، بينما يتخذ المسلم موقعه، ولا سيَّما حين يكون الكفار قريبين، في مكان بارز قدر الإمكان لأداء شعائر صلاته، لم يكن لقلبه سوى دور ضئيل في هذا، لكنَّه مع ذلك يشعر أنَّه نشأ بينهم، سواء أكان يفهم حقاً اللغة العربيَّة التي يكرّرها أم لا، إنَّ الإسلامَ ليس مهيئاً على نحو جيّد لتوليد المشاعر النقيَّة والمرهفة، وسيكون لنا ما يسوغ فرضيتنا أنَّه خلال القرون الأولى من وجوده، كان على العديد من الأرواح العميقة ذات المشاعر الدقيقة الحساسَّة أن تمرَّ من خلال صراعات داخليَّة شديدة لأنَّهم لن يقتنعوا باحتياجاته الدينيَّة، لكن حُسِمَ أمرُ كلّ تلك المعارك بالكامل منذ زمن بعيد، وملأ سلامٌ عميقٌ قلبَ كلّ مسلم الآن، يجب على كلّ أولئك الذين يجعلون الإيمان والثقة بالخلاص

قادة الأديان الأساسيين أن يعملوا من أجل الإسلام؛ إذ إنَّ الدينَ الذي يكاد يكون الانتحار بين أتباعه غير معروف جدير باحترامنا حتماً.

بعد وفاةِ محمَّد (8 حزيران عام 632)، اجتمعَ أبرزُ الصحابةِ لانتخاب أبي بكر كخليفة له، إذ كان صديقه الأكثر جدارةً بالثقة، في الواقع كلّف الأمر في البداية بعض المتاعب لإبعاد المدنيين، «المساعدين» القدامى لمحمَّد، عن فكرة أنَّ أحدَهم يجب أن يصبحَ القائد، لكن لم يول أيّ اهتمام لاستياء علي، الذي كانت زوجته فاطمة الطفلة الوحيدة المتبقية على قيد الحياة لابن عمّه محمَّد، وممَّا لا شك فيه أنَّ اختيارَ أبي بكر هو ما تمناه النبيّ نفسه، لكن ما أن سمع العرب بوفاة محمَّد تمرَّدوا بأعداد غفيرة؛ إذ نبذ الكثيرون الإسلام بالكامل، وتعلّق كثيرون بأنبياء جدد ظهروا هنا وهناك على نمط نبي مكة، كان آخرون مستعدين لإبقاء الصلاة الإسلاميَّة، ولكن ليس لدفع الضرائب؛ باختصار، كان عمل محمّد بأكمله موضع تساؤل، ثم ظهرت قوَّة الإسلام والإرادة الصلبة، لقد امتنع أبو بكر، واثقاً كما كان في إيمانه، حتى في أمس الحاجة، عن تقديم أيّ تنازل للمتمردين، وأصرَّ على الإذعان المطلق لأوامر الإسلام، كان من السهل على المسلمين قمع التمردات التي كانت غير مرتبطة ببعضها البعض، وتقودها إرادة واحدة، لكن توجب في بعض الحالات سفك سيل من الدماء، يعود الفضل العسكريّ في هذه الأعمال بصفة رئيسة إلى خالد، «سيف الله»، فتى قريش، على غرار المحاربين ورجال الدولة البارزين جميعهم تقريباً في ذلك الوقت، وهو نفسه الذي حول المعركة قبل تسع

سنوات لصالح المكيين الكافرين ضد محمّد في «جبل أُحُد».

بمجرد أن خضعتْ المنطقةُ العربيَّةُ بأكملها مرَّة أخرى، بدأتْ حروبُ الغزو الكبرى، وكانت سياسة جيدة لتحويل القبائل البريَّة المهزومة مؤخراً نحو هدف خارجيّ يمكنهم من خلاله إشباع شهوتهم في الحصول على الغنائم على نطاق واسع، والحفاظ على شعورهم الحربيّ، وتقوية أنفسهم في ارتباطهم بالدين الجديد، لكنّي لا أعتقدُ أنَّ تلك المساعي نتجتْ عن حسابات سياسيَّة هادئة، فقد أرسل محمَّد نفسه بالفعل بعثات استكشافيَّة عبر الحدود الرومانيَّة، وبذلك بيَّن الطريقَ لخلفائه، كان تَدارك خطاه متوافقاً مع روح الإسلام الفتي، الذي نما نمواً عظيماً وسط جلبة السلاح.

عرف البدو القليل من القرآن على نحو غير مألوف، لكنَّ النجاحَ هو الذي يترك الانطباع الأعمق على أبناء الطبيعة هؤلاء، إذ لا بدَّ أن يكونَ هذا الدينُ الذي أخضعهم، والذي يقودهم الآن إلى النصر والنهب حقيقيًّا، وسرعان ما لم يكن هناك من يشك في ذلك، على الرغم من أنَّه كان للبدو الرحل بين العرب القليل من الاحتياجات الدينيَّة بطبيعة الحال، إلا أنَّهم يمتلكون بوصفهم أنقى الساميين جميعهم شخصيَّة دينيَّة راسخة الجذور، وسرعان ما استحوذ هذا الدينُ البسيط، الذي يتوافق مع ميولهم ويرضي احترامهم لذاتهم، عليهم بالكامل.

لقد حقَّقتْ قوَّةُ الدينِ الجديد الناشئة، ونزعةُ الشعبِ العربيّ

الحربيَّة، التي اتَّحدَتْ الآن للمرة الأولى، وقادها قادةٌ عظماء تحت حكم عمر (634-644) الحصيف، الفطِن، ذي القبضة الحديديّة، نجاحات ضدّ الرومان والفرس بسرعة لم يحلمْ بها محمَّد مطلقاً، لم يكنْ من السهل تفسير هذا الانقلاب المذهل، بعد كلّ ما ذُكر، ومن الصحيح أيضاً أنَّ كلتا الإمبراطوريتين كانتا في حالة من التدهور؛ فكلتاهما ضعيفتان جداً في الوقت الحاليّ نتيجةً للحروب التي خاضتاها مع بعضهما البعض خلال العقود الثلاثة الأولى من القرن، إضافةً إلى ذلك، تزعزعتْ الإمبراطوريَّةُ الفارسيَّةُ، التي هُزِمت بعد سنواتٍ طويلةٍ من الانتصار في نهاية المطاف، قبل وبعد إبرام السلام بسبب صراعاتٍ دمويَّة حول خلافة العرش، من ناحية أخرى، كان لدى كلٍّ من بيزنطة وبلاد فارس جنود حقيقيون مسلحون ومنضبطون بصورة منتظمة، إذ لم تُفقَد التقاليد الحربيَّة الرومانيَّة بالكامل بعد، وما يزال الفرس يمتلكون فرسانهم المدرعين المرعبين، الذين كثيراً ما هربت في مواجهتهم جيوش روما حتى في أحسن الأحوال، ولا بدَّ أنَّ تخفيضَ عدد المدن المحصَّنة كان على الأقلّ مهمَّة شاقَّة بالنسبة إلى العرب كما كانت بالنسبة للقوط والهون، الذين كانوا بطبيعتهم شعوباً مولعة بالحرب، أضف إلى ذلك، لقد صادف أن أمستْ بلاد فارس، حين شُنَّ الهجوم الرئيس على أراضيها، تحت سيطرة حكمٍ صارمٍ مجدداً، وكان ملكها، يزدجرد الثالث فتى، لكن السلطة الملكيَّة وقيادة الجيش كانتا تحت سيطرة رجل يتمتع بالحيويَّة والشجاعة؛ إنَّه رستم، رأس أحد أوائل الأسر الأميريَّة في الإمبراطوريَّة، ومع ذلك، فإنَّ هؤلاء العرب المسلحين

على نحو رديءٍ، الذين لم يقاتلوا في فرقٍ عسكريَّةٍ منظَّمةٍ على الدوام، بل في عائلات وعشائر بزعامة قادةٍ لم يواجهوا من قبل قواتٍ منضبطةٍ، تغلَّبوا على رستم ومضيفيه الأقوياء (636) بعد صراع طويل، واستولوا بعدها بمدَّة قصيرة على العاصمة المحصَّنة قطسيفون (637)، ثم بعد بضع سنوات، من خلال معركة نهاوند الحاسمة (640 أو 641 أو 642)، أسقطوا الإمبراطوريَّة نفسها.

كيف أمكن لشيءٍ كهذا أن يحدث؟

في الواقع، كان تفسيرُ العربِ بسيطاً جداً: «سلبَ اللهُ شجاعةَ غير المختونين»، «عاقب الله الفرس»، «قتل الله رستم»، بهذه الكلمات، تماماً مثل الكلمات الموجودة في العهد القديم، لا يمكننا إلا أن ندركَ مدى عظمة القوَّة الكامنة في العقيدة الدينيَّة الأكثر عنفاً، والأكثر عجباً هي الفتوحات التي كسبوها على الأراضي الرومانيَّة، كان الإمبراطور هرقل بالتأكيد أعظم رجل حكم الإمبراطوريَّة منذ عهد قسطنطين ويوليان، إذ كان دبلوماسيّاً ماهراً، وقائداً ذا كفاءةٍ عالية، وبوصفه جندياً، كان مقداماً حدَّ التهور، كيف أمكن أن يُجبَرَ هذا الرجل من بين الرجال جميعهم على التنازل لأبناء الصحراء عن الأراضي التي انتزعها من الفرس؟

إنَّنا ندركُ بالتأكيد حالةً أو حالتين جعلت فتوحاتهم أسهل على العرب؛ إذ كان معظمُ سكان سورية، والمصريون جميعهم تقريباً، من الهراطقة المونوفيزيين، فلذلك عانوا من اضطهاد كبير على أيدي

البيزنطيين الأرثوذكسيين، بناءً على ذلك، ساعدوا وحرَّضوا العرب، ولا سيَّما أنَّهم قد أقسموا لأنفسهم ببعض التخفيف من عبء الضرائب التي فرضها البيزنطيون.

قد نعتقدُ أنَّ النساطرةَ السوريين، الذين شكلوا غالبيَّة قاطني أغنى أراضي الإمبراطوريَّة الفارسيَّة (الموجودة على نهر دجلة والمجرى السفليّ لنهر الفرات)، كانوا أكثر ميلاً للعرب من الفرس، لكن فيما يتعلَّق بفتوحات كهذه، بالكاد يمكن إيلاء أهميَّة كبيرة لتعاطف وكراهية الفلاحين وسكان المدن غير المحاربين، لعلَّ الأهمَّ من ذلك هو واقعة أنَّ القبائلَ العربيَّة العديدة، التي خضعتْ للحكم الرومانيّ والفارسيّ مع أنَّ معظمها كان مسيحيّاً، قد انحازتْ إلى المسلمين بالإجماع تقريباً على ما يبدو بعد الانتصارات الأولى بمدَّة وجيزة، سيكون من الممكن مضاعفة التفسيرات أكثر، ومع ذلك تبقى الظاهرة غامضة مثل ما كانت من قبل، ولا ترضي العباراتُ البلاغيَّةُ عن تدهور حالة كلتا الإمبراطوريتين، وطاقة المسلمين الشبابيَّة، الباحثَ الذي يحتفظ بالحقائق الملموسة أمامه.

نظَّم عمر، الذي أصبح خليفةَ محمَّد أو «الخليفة» بعد حكم أبي بكر القصير لمدَّة عامين، والذي كان أوَّل من لُقِّب بـ «أمير المؤمنين»، مجتمعاً سياسيَّاً (كومنولث) دينيَّاً عسكريَّاً كاملاً، وأصبح العربُ، شعب الله، أمَّة من المحاربين والحكام، وتم التقيد بتعاليم الدين بصرامة؛ إذ عاش الخليفة ببساطة مثل أتعس رعاياه، لكنَّ الغنيمةَ الهائلةَ والضرائب

المفروضة على المهزومين وفَّرتْ وسائلَ دفع أجور مناسبة لكلّ عربيّ، وقد رُفِعَ هذا الأجر، الذي دُرِّجت قيمته وفق جدول محدَّد وشاركتْ فيه النساء والأطفال، مع زيادة الإيرادات، لأنَّ المبدأَ الأساسيَّ هو أنَّ كلَّ ما يُكتسب من الأعداء والرعايا ينتمي إلى المسلمين جميعاً، وبذلك فإنَّ كلَّ ما يتبقى بعد دفع النفقات العامَّة يجب تقسيمه، لكن في الأراضي المحتلة، لم يُسمَحْ للعرب بملكيَّة الأرض، بل سُمِحَ لهم إقامة المعسكرات فحسب، كان أمراً سيئاً بالنسبة للإسلام، ولكنَّه جيد بالنسبة إلى العالم، أنَّ هذا الدستور الشيوعيّ العسكريّ لم يدم طويلاً، فقد كان مخالفاً للطبيعة البشريَّة، وإلى جانب ذلك، لم تستمر الإيرادات بالوصول دائماً على نحو يمكِّن من منح أجر كافٍ لكلّ فرد، كما أنَّ المبدأ القائل بوجوب وضع المتحولين الجدد للجنسيَّة الأجنبيَّة في مستوى العرب، لم يكن قابلاً للتنفيذ على نحو كامل، إذ لطالما برز شعور العرب الأرستقراطيّ ضد تحقيق تلك المساواة التي طالب بها الإسلام بين علمائه.

في عهد خليفة عمر، عثمان (644-656)، كان ما يزالُ مجالُ الفتحِ منتعشاً وقويّاً إلى حدٍّ كبيرٍ؛ لكن الطابع الحربيّ البحت للدولة تضاءل إلى حدّ ما، أصبح الإذنُ يُمنَح للعرب لتملك الأراضي في المناطق المكتسبة حديثاً، ومن الطبيعيّ أن يكونَ مالكُ الأرضِ والفلاح أقلّ ميلاً لبعثات الفتح البعيد من الجندي البسيط، واختُرِق مبدأ المساواة النسبيَّة على الأقلّ في تقاسم الأرباح بعنف من خلال منح أراضي التاج لأشخاص بارزين، تلا ذلك تحول الدولة الدينيَّة إلى دولة علمانيَّة بشكل سريع

وحتميّ، ويصح القول إنَّ الدولةَ العلمانيَّةَ ما زالت في علاقة تعدّ من أوثق العلاقات بالدين ـ أوثق بكثير من علاقات ما يسمّى بالدولة المسيحيَّة في أيّ مكان في العصر الحديث ـ لكنَّ محاولات إقامة إمبراطوريَّة الإسلام مرّة أخرى على أساس دينيّ بحت انتهت بالفشل.

لم يكن هناك خلافة وراثيَّة في القيادة العليا، فقد اختار صحابةُ النبيّ المكيون الأكثر نفوذاً، مثل ما رأينا، أبا بكر ليكون خليفةً، وقد رشَّح أبو بكر بنفسه في نهاية المطاف عمر بوصفه خليفته، وذراعه اليمنى، وثاني أكثر صحابة النبي حميميّةً ومستشاره.

الواضح أنَّ عمرَ، وهو نفسه مِثال الحاكم المسلم، لا يعتقد أنَّ أيّاً من أصحابه جدير بالقيادة تماماً، لقد رتب وفقاً لذلك أنّه بعد وفاته، يجب على خمسة من أبرز أصدقاء محمّد القدامى أن يقرروا فيما بينهم من سيخلفه، وبعد مداولات طويلة أجمعوا على عثمان، الواقع أنَّ عثمان أصبح الآن من أوائل الذين اعترفوا بمحمَّد كنبي، وقد تزوج اثنتين من بناته على التوالي، إلا أنّه ينتمي إلى الأمويين، إحدى العائلات الأكثر بروزاً في مكة قبل الإسلام، والتي كان يترأسها، أبو سفيان، قائداً لسنوات في الصراع ضد محمّد والمدنيين، إذ إنَّ تفضيلَ الأقاربِ يضرب بجذوره عميقاً في دم كلّ عربيّ أصيل، ولم يسلمْ النبي نفسه منها، لم يعرِّض عمر، الذي كان في كثير من النواحي داعية أكثر ثباتاً للإسلام من محمّد، نفسه مطلقاً لأقلّ تهمة من تهم المحسوبيَّة، لكنَّ عثمان كان رجلاً ضعيفاً؛ إذ أبدى تفضيلاً

مفرطاً لأقاربه، وفي غضون مدَّة قصيرة سيطر الأمويون على عدد من أهمّ المناصب وأكثرها تحقيقاً للربح، كانوا رجالاً أكفاء في معظمهم، ولكنّهم ذوو نزعة دنيويَّة قويَّة، لم يشعرْ عثمان الصالح بأيّ شيءٍ خاطئٍ في هذا، لكن رأى العديد من رعاياه الأمر من منظور آخر، إذ أدَّى امتعاض بعض المسلمين المتشددين، ومزاج جماهير الشعب المضطرب، وتحريضات ثلاثةٍ من الرجال الخمسة الذين شكلوا الهيئة الانتخابيَّة بعد وفاة عمر ـ علي وطلحة والزبير ـ كذلك عائشة، ابنة أبي بكر، المفضَّلة الملهمة للنبيّ، إلى تمرد، قُتِل فيه عثمان الأشيب (17 حزيران عام 656).

الخلافاتُ السياسيَّة والدينيَّة:

كان فعل العنف هذا سابقة شريرة بالنسبة إلى العديد من مشاهد الإرهاب اللاحقة، وبداية حروب أهليَّة دامية، وانشقاقات في نهاية المطاف، ودعا قتلة عثمان علياً للخلافة، كما اعترف به طلحة والزبير أيضاً، لكن سرعان ما نقضوا كلمتهم وتحالفوا مع عائشة ضدّه، وسرعان ما كانت شجاعة علي تضاهي هؤلاء الأعداء، بيد أنَّه ظهر بالفعل خصم آخر أكثر شراسةً في شخص معاوية الداهية، ابن أبي سفيان المذكور أعلاه، الذي كان لمدة طويلة حاكماً لسورية، وبسط سلطته هناك مثل أميرٍ، استمرَّ الصراعُ مصحوباً بالكراهية لسنوات، لقد تقدَّم معاوية بوصفه ثائراً من قريبه عثمان، كان بصفته رأس الأسرة القويّ مؤهلاً جيداً وفقاً للأفكار العربيَّة القديمة، وفي الحقيقة إنَّه ملزمٌ بفعل ذلك، ولم يلغِ الإسلام هذه

النظرة لواجبه، لكن بوصفه خليفةً لمحمَّد لم يكن بوسع ابن الرجل الذي قاد الوثنيين ضدّه في غزوة أُحُد وفي معركة الخندق أن يستحدث أيّ ادعاء آخر غير الارتباط غير المشروط بجيوشه وتفوق ذكائه، كذلك، كان علي بلا حقّ وراثيّ، وكان إعلان قتلة عثمان أمراً مشكوكاً فيه جداً من الناحية القانونيَّة، لكن بصفته قريباً، ومحبباً، وتلميذاً، وصهراً لمحمَّد، فقد يبدو أكثر ملاءمةً لتمثيل مصالح الدين من معاوية، الذي يبدو أيضاً أنَّه كان شخصاً مقبولاً بالنسبة إلى النبي في سنواته الأخيرة؛ لذلك فإنَّ المسلمين الذين كانوا أوفياء لقناعاتهم انحازوا في الغالب إلى جانب علي، ولا سيَّما المدنيين، الذين خاضوا (أو آباؤهم) ذات مرَّة معارك محمَّد، لكنَّهم الآن دفعوا أكثر فأكثر إلى الخلفية من مسلمي مكة غير الوديين.

وفي خضم الجدل، برز الرأي القائل لأوَّل مرَّة إنَّ لعلي حقَّاً مقدّساً في السلطة العليا، وإنَّ أبا بكر وعمر وعثمان كانوا مغتصبين؛ أولئك الذين يؤمنون بهذا الرأي هم الشيعة الحقيقيون، أنصار علي، وتعترف الغالبيَّة العظمى من المسلمين، من ناحية أخرى، بحقّ علي في مواجهة معاوية، لكنَّهم يعدون أيضاً الخلفاء الثلاثة الأوائل شرعيين، ووقف العديد من المسلمين الطيبين إلى جانب معاوية في هذا النضال، وإلى جانب ملوك عائلته بعد ذلك، رغم أنَّه منذ سقوط الأمويين، برَّر قلَّةٌ من المسلمين خروج معاوية ضد علي، ظهر الآن في اضطرابات هذا الوقت حزب راديكاليّ متطرف جديد، أنكر حقَّ المطالبين جميعهم، وأعطى السلطة لـ«الأفضل»، كان لهؤلاء الناس؛ أي الخوارج («المنشقين»)، بالتأكيد فكرة

أساسيَّة عن الإسلام، طوروها إلى أقصى حدّ، لقد كانوا محقين إلى حدّ ما، لكن وفقاً لمبادئهم، سيكون من المستحيل تأسيس أيّة دولة، على الأقلّ في الشرق، إذ كانوا متعصبين يسعون إلى تنفيذ أفكارهم بأقصى طاقة وشجاعة مستميتة، وحافظوا إلى حدّ ما على ولائهم لعقيدة تستحقّ كلّ الإعجاب، لكنَّهم تسببوا في قدر كبير من المعاناة ولم يتمخضوا عن شيء، لم يعد للجدل حول الخلافة أيَّة نتائج ملموسة منذ زمن بعيد، لكنَّها ما تزال تقسِّم العالم الإسلاميّ؛ إنَّ الأحاديثَ التاريخيَّة حول هذا الموضوع غنيَّة جداً، لكنَّها تزخرُ على نحوٍ كبير بالشعور الحزبيّ؛ فهي مواتية جداً لعلي، وفاشلة في إظهار معاوية بأهميته التاريخيَّة الكاملة.

بطبيعة الحال، لا يُسمح لنا أن نرى، إلا على نحو ضئيل، أنَّ النضالاتِ لم تشِرْ في الواقع إلا إلى النهب، وليست سوى تعبير بطريقة مختلفة عن روح المحارب الجامح نفسه التي سيطرتْ قبل مدَّة وجيزة على الفرس والرومان، لكن، في الأزمنة القديمة، تمكن الناس في بعض الأحيان من رؤية مقدار العاطفة البشريَّة على نحوٍ واضح- غالباً ما تكون أحطّ أنواع العاطفة - التي عملتْ في هذه الحروب الأهليَّة على الرَّغم من كلّ صرخات الأحزاب الدينيَّة، ولا بدَّ أنَّها أدَّت في أحيان كثيرة، بالنسبة إلى المسلم المتدين حقَّاً، إلى أخطر الأفكار لمعرفة كيف تصرف أشخاص مثل طلحة والزبير وعائشة، وعلي على نحو أساس، أنفسهم على نحو مهين، فيما وعدهم النبي قبل مدة طويلة بمكان لهم في الجنة.

علي، الذي كان رجلاً شجاعاً بكُلّ معنى الكَلِمة، لكن يصعب أن يُسمَّى قائداً، كان يفتقر بالتأكيد إلى الرؤية الحقيقيَّة، ولم يولد بأيّ حال من الأحوال ليكون قائداً، سَقط (22 كانون الثاني عام 661) بخنجر أحد الخوارج الثلاثة الذين اتخذوا قَسماً على أنفسهم بالتخلص من كلا الخصمين، وكذلك عمر؛ حاكم مصر القويّ، وذلك لجعل الاختيار الحرّ ممكناً، إلا أنَّ محاولاتِ التخلص من معاوية وعمر باءت بالفشل، وبهذا الفعل الدمويّ، بُرِّئ علي من ذلّ العيش ليرى كلّ شيء يسقط على يد الأمويّ الذكي.

تركَ موتُ المنافس الطريق خاليةً، فاتخذ معاوية لقب الخليفة، وقد أذعن الحسن، ابن علي العاجز، من دون عناءٍ كبيرٍ مقابل نفقة جيدة، وأولى والي سورية، المعترف به عموماً بوصفه زعيماً للمؤمنين، كلّ الاحترام للمسلمين الأكثر تشدداً، إذ كان سلوكه الخارجيّ سلوك أمير روحيّ بكلّ معنى الكلمة (على سبيل المثال، وعظ كلّ جمعة في المسجد، مثل ما فعل النبيّ والخلفاء السابقون، وكما كانت عادة حكام المقاطعات والقادة أيضاً)، لكنَّه مع ذلك كان حاكماً علمانيّاً، وكان «أهل سورية» سنداً له ولأسرته؛ أي ليس سكان البلاد القدامى بطبيعة الحال، بل الجيوش العربيَّة التي استقرَّت هناك، وبناءً على ذلك، اضطر الأمويون إلى الاحتفاظ بدمشق، المدينة الأهمّ في سورية، كعاصمة لهم، برغم عدم وجود هالة دينيَّة مثل المدينة؛ مقرّ إقامة الرسول وخلفائه الأوائل، ورغم أنَّها كانت بعيدةً جداً إلى الغرب لتكون نقطةً جيّدةً يمكن من خلالها

مراقبة العديد من البلدان الخاضعة في الشرق، كان على الحكم الأمويّ الذي أسَّسه معاوية أن يواجهَ العديد من الصعوبات، وقد أثار السلوك غير المترابط والعابث لبعض أفراد الأسرة الحاكمة مرارة المؤمنين وشجع مجموعةً متنوعةً من المتظاهرين، كذلك الخوارج الهمجيين، على ثورات متكرّرة لم تُقمعْ من دون إراقة دماء كثيرة.

دنستْ جيوشُ الخلفاء الأمويين (683 و 692) مدينةَ مكة المقدَّسة مرتين، وقُتِل أبناءُ وأحفاد أبطال محمَّد الأكثر إخلاصاً، المدنيون، على يد جنود يزيد ابن معاوية في موطنهم الأصليّ، مدينة النبي (28 آب عام 683)، تمرَّد حسين الابن الثاني لعلي ضدّ هذا الخليفة نفسه، وهو رجل بلا دين إلى حدّ كبير، لقد بدأتْ الثورةُ واستمرَّت بلا رأس، مثلها مثل معظم الثورات الأخرى التي انبثقتْ من عائلة علي، وقُمِعَتْ بقليل من الخسائر، على ما يبدو، لم يكن للأمر أيّة نتيجة مطلقاً، لكن الطريقة التي ينظر بها الرجال إلى الأمر غالباً ما تكون أكثر أهميَّةً من الأمر ذاته، حتى المعاصرين تأثّروا بشدَّة برؤية حفيد النبيّ يُقتل على يد توابع الخليفة الدنس، ورُفِع رأسه الدامي للاستعراض على غرار الطريقة الشرقيَّة الشائعة.

تحوَّلَ حسين، المتمرد الطائش، إلى شهيد في عيون المسلمين الأتقياء، وتزايد مجده مع الوقت، لقد ساهمتْ صرخةُ «الثأر للحسين» كثيراً في سقوط العرش الأمويّ، ويحيي الشيعة حتى يومنا هذا ذكرى وفاة الحسين بوصفها يوم حداد، لم يعجزْ أبداً عن إثارة مشاعر عميقة وغضب

شديد في صدورهم، ومعهم تعدّ كربلاء، حيث قضى نَحبه في 12 تشرين الأوّل عام 681، موقعاً مقدَّساً يضاهي مكة والمدينة تقريباً، كما يعترف المسلمون من غير الشيعة أيضاً أنَّ حسيناً كان شهيداً مقدساً، وينظرون بأعمق اشمئزاز إلى يزيد، الذي يتمتع بحياة مشرقة ولكنَّه ليس فاسداً بأيّ حال من الأحوال.

إن كانتْ سلالةُ الخلفاء الأمويين قد تعرَّضتْ للخطر بسبب عداء المسلمين الأكثر تشدداً، فإنَّها تعرَّضتْ للخسارة من جهة أخرى بسبب الحماس الدينيّ للرجل الوحيد المتدين بينهم، إنَّه الصادق لكن المثالي الضيق الأفق عمر الثاني (717-720)، الذي سعى بكلّ قوّته لتطبيق القرآن، واسترجاع دستور عمر مرة أخرى، لكن بطبيعة الحال كانت النتيجة الوحيدة هي التسبب في حالة من عدم التنظيم.

رغم أنَّ الأمويين قدَّموا حكاماً عظماء، إلا أنَّهم فشلوا في إنشاء إمبراطوريَّة دائمة لأسباب مختلفة، إذ كان سقوطهم حتميَّاً حين بدأوا هم أنفسهم والجيوش السوريَّة التي كانوا يعتمدون على دعمها على نحوٍ كليّ في القتال، وظهرتْ على الساحة أسرةٌ منافسة؛ أي العباسيون، أحفاد العباس عمّ محمَّد، الذي لم يتحوَّلْ إلى الإسلام إلا بعد الاستيلاء على مكة، ولم يكن له أيّ دور ظاهر، وعاش لمدة طويلة في الخفاء، لكنَّهم الآن يتمتعون بالذكاء للأخذ في الحسبان الأدوات القويَّة التي أعدَّها أحفاد علي لتقويض الإمبراطوريَّة، لقد قيل الكثير من التعبيرات الغامضة،

مثل «حقّ بيت هاشم» (الذي شمل عباساً وكذلك علياً) و«حقّ آل النبيّ» (ممَّا قد يشيرُ إلى عمّه مثل ما يشيرُ إلى ابن عمه وصهره)، كانت هناك أيضاً أنباءٌ عن انتقالٍ مزعومٍ للحقّ الوراثيّ من أحد أحفاد علي إلى العباسيين، ونجح قادة العباسيين في كسب جزء كبير من الجيوش إلى جانبهم في الجزء الأبعد من شرق بلاد فارس (خراسان)، التي لا يمكن إبقاؤها تحت سيطرةٍ صارمةٍ من دمشق، تألفتْ هذه الجيوشُ في معظمها من الفرس الذين أسلموا، لكنَّهم لم يكونوا ودودين مع العرب، وبعد صراعات شديدة انتصر العباسيون (750)، ونجا عددٌ قليلٌ من أفراد الأسرة المنهارة من المذبحة الرهيبة.

أدَّى انتصارُ العباسيين إلى إنهاء الدولة العربيَّة الخالصة، والدولة السامية الخالصة في الوقت ذاته؛ نرى في ذلك استجابة العنصر الفارسيّ إلى حدّ كبير، وإعادة تشكيل الإمبراطوريَّات العالميَّة الآسيويَّة القديمة، التي كان كيانها أكثر استقراراً على الأقلّ، لم يكن مجرد ظرف عرضيّ أن يُنقلَ مقرّ الحكومة مباشرةً ومنذ البداية إلى حيث شَغَله على التوالي الأخمينيون والأرسكيديون والساسانيون، سهول دجلة والفرات السفلى، وهناك نشأتْ مدينة الخلفاء الفخريَّة، بغداد.

أوْلى العباسيون للدين احتراماً ظاهريَّاً أكثر ممَّا فعل الأمويون، لكنَّهم كانوا في الواقع ذوي عقليَّة دنيويَّة تماماً، إضافةً إلى ذلك، ظهرتْ فيهم سمة غير مستحبة من النفاق، غير أنَّ أوَّل خليفتين من العائلة كانا

من الرجال ذوي الأهميَّة الكبيرة، ولا سيَّما الخليفة الثاني، المنصور (754-775)، إذ كان أحد أعظم الأمراء، وأكثرهم افتقاراً للضمير، الذين قادوا أكثر إمبراطوريَّة عظيمة على الإطلاق، وهو من أسَّس الإمبراطوريَّة المحمَّديَّة على أساس راسخ،[1] وتمتّعت الخلافة بلا شك تحت حكم حفيده هارون الرشيد (786-809) بأعظم فترة ذروة لها، على الرغم من أنَّ هارون نفسه كان بعيداً كلَّ البعد عن كونه حاكماً عظيماً، وفي أيامه كانتْ جميع الأراضي تقريباً من نهر سيحون والسند إلى أعمدة هرقل تخضع للخليفة، ولم يعد العربُ دعامة للإمبراطوريَّة، لكن انتشرتْ اللّغةُ العربيَّةُ على نطاقٍ واسع، فقد أصبحتْ لغةَ الدين والحكومةِ والشعرِ والعلومِ التي كانتْ في طور النمو، ازدهرتْ على ضفاف نهر دجلة حضارة أكثر تفوقاً ممَّا كانت عليه في ظلّ أفضل الحضارات الساسانيَّة، وساد قدرٌ كبيرٌ من الهدوء في معظم المقاطعات، وبذلك فإنَّ تبذيرَ البلاط الهائل لم يضغطْ على الرعايا بما يفوق القدرة على التحمل، كما وجدت سورية والأراضي المجاورة نفسها في ظروف أفضل ممَّا عاشته لمدة طويلة، صحيح أنَّ الإدارة كانت معيبةً جداً إذا حُكم عليها وفق الأفكار الحديثة، لكن يجب أن يقاسَ الحكم الجيد في الشرق بمعيار متواضع للغاية، لقد دخل المسيحيون إلى الإسلام بأعداد غفيرة، إذ كانتْ الرغبةُ في الوقوف على قدمِ المساواةِ مع الفاتحين أمام القانون، ودفع ضرائب منخفضة، دافعاً

(1) للاطلاع على موضوع المنصور وتأسيس الإمبراطوريَّة العباسيَّة بصورة أوفى، يُنظر الفصل الثالث.

قوياً لذلك، لكن ملاءمة الإسلام للفلاحين الشرقيين وسكان المدن، الطبقة الأكثر تواضعاً، كان لها تأثير لا يقلّ قوّة، ولا سيّما أنَّ الله نفسه قال إنَّه يساندهم، ولم تثابرْ الكنائسُ المسيحيَّةُ في الشرق مطلقاً في حماستها لتثقيف أتباعها والارتقاء بهم في الجانب الروحيّ، فقد أولوا دائماً الأهميَّةَ الأساسيَّة للعناصر الخارجيَّة للعبادة، والصيغ الطائفيَّة، وإدانة الهراطقة، وتوجد حقيقة جديرة بالملاحظة بوجه خاصّ، وهي أنَّ غالبيَّةَ مسيحيي شرق سورية قد أسلموا، حتى نساطرة الأراضي التي يرويها نهر دجلة، الذين لم يكن ممكناً جعل أجدادهم يرتدون من خلال كلّ الاضطهادات الشرسة التي مارسها الملوك الفارسيون.

لتفسير هذه النتيجة، ربَّما يجبُ إيلاء بعض الأهميَّة أيضاً للرأي القائل إنَّ المسيحيين، باعتمادهم دين الإسلام الخالي من الكهنة، تخلَّصوا من وصاية رجال دينهم وقمعهم، وبوجه عام لم تفقدْ حضارةُ السوريين والأقباط والمسيحيين الشرقيين الآخرين إلا القليل بسبب تغيير دينهم، لقد أنهى الإسلامُ العديدَ من المؤسَّسات القديمة التي شُكّلت للثقافة، لكنَّه في المقابل وُلِدَ العديدُ من البذور الجديدة، قلَّما كانتْ التحوّلات بسبب الإكراه المباشر، لقد ابتهج المتدينون حين دخل المسيحيون الإسلام أفواجاً، لكن بالنسبة إلى الحكام، كانت هذه التحولات، في معظم الأحيان، غير مرحَّب بها بتاتاً، إذ أُعفي المتحولون من أكبر الضرائب، وبذلك فإنَّ تغييرَ دينهم يعني انخفاضاً خطيراً في الإيرادات، كما لم تُسَأ معاملةُ المسيحيين على نحوٍ منتظم، كان عليهم أن يعانوا الكثير من القمع

والازدراء وأن يوطِّنوا أنفسهم على المنزلة الدونيَّة، لأنَّ الإسلامَ، بصرف النظر عن الدونيَّة القانونيَّة لغير المسلمين بعدّهم مجرد أجانب محميين، قد منح أتباعه نبرة ازدراء فوقيَّة للغرباء كلّهم،(1) إضافةً إلى ذلك، فإنَّ الحكامَ، كبيرهم وصغيرهم، الذين ضغطت تجاوزاتهم بشدَّة حتى على رعاياهم المسلمين، ما زالوا يرون أسباباً أقلّ لتجنب الكفار، لكنَّها الطريقة الشرقيَّة في كلّ شيء.

قد تستمرُّ الكنائسُ المسيحيَّةُ المختلفة في خلافاتها مثل ما كانت من قبل، إن اختارت ذلك، لكن لم يعد بإمكانها في الواقع اضطهاد بعضها البعض، إذ من الأسهل على المرء أن يعيشَ كمسيحيّ تحت حكم الخلفاء على أن يكونَ مهرطقاً مسيحيّاً داخل الإمبراطوريَّة البيزنطيَّة، لقد شابهَ وضعُ أتباعِ الديانةِ الفارسيَّةِ القديمة في الشرق وضع المسيحيين في الغرب، باستثناء أنَّ وضعَهم القانونيَّ لم يكن مضموناً بشكل ثابت من خلال مقاطع قرآن صريحة، لقد جرى التحول إلى الإسلام في بعض أجزاء الإمبراطوريَّة الفارسيَّة القديمة على نطاق واسع في مرحلة مبكرة جداً، لكن في بلدان أخرى، ولا سيَّما في بلاد فارس، استمرَّتْ العقيدةُ الوطنيَّةُ لمدَّة طويلة بإصرار كبير.

بدأ أفول الخلافة العباسيَّة مع المأمون (813-833) ذائع الصيت،

(1) لا يتعارض مع هذا أنَّ المسيحيين واليهود الأفراد، سواء بمحاباة أميريَّة أو بمواهبهم الخاصَّة، قد ارتقوا أحياناً إلى مناصب ذات سلطة ووقار، ولا سيَّما كأطباء، ناهيك من أنَّ الكتبةَ الأقباط كانوا يعملون بانتظام في إدارة مصر.

إذ قسَّم هارون بوصيته الأخيرة الإمبراطوريَّة بحماقة بين ابنيه الأمين والمأمون، لكنَّه احتفظ بالسيادة ولقب الخليفة لابنه الأمين، فكانتْ النتيجةُ الطبيعيَّةُ هي الحرب الأهليَّة، وبعد نضالات يائسة، فقدَ الأمينُ العاجز، الذي كان من أحفاد المنصور من جهة أبيه وأمه، عرشَه وحياته على يد جيوش المأمون الخراسانيَّة، والذي كانت والدته عبدة فارسيَّة، كان ذلك انتصاراً جديداً للفرس على المصلحة العربيَّة، فمن خلال هذه الأحداث، التي أعقبها مزيدٌ من الفوضى، وصلَ الحكَّامُ الذين ترأسوا جيوشَ مقاطعاتهم، وكذلك قادة المرتزقة، إلى درجة خطيرة من السلطة في كثير من الحالات، إذ أسَّس طاهر الذي كان المأمون مديناً له بظَفَره على نحو أساسيّ، لنفسه إمارةً في مقاطعة خراسان ذات الأهميَّة، وورَّثها إلى أخلافِه، كانت تعتمد بشكل ضعيف على الخلافة، لم يعرف المأمون كيف يُبقي قادته المنتصرين في مكانهم المناسب، ولا كيف يدمرهم، كما فعل المنصور، ولأنَّ ضميرَه أعاقه، فلن يصدّقَ أحدٌ من الذين نظروا على النحو الواجب في سلوكه تجاه موسى، حفيد علي، قدَّمَ المأمونُ تنازلات كبيرة من أجل الفوز على الحزب الشيعيّ الذي ما يزال قويّاً، واتخذ خطوات، بالكاد يمكن أن تكونَ صادقة، لتأمين خلافة موسى، لكن حين واجه معارضةً نشطةً من بيته وأتباعه المباشرين، تخلَّص سرَّاً من ذلك الأمير البائس، لقد أَولى المأمون اهتماماً كبيراً بالفن والعلوم، وفضَّلَ ترجمةَ الأعمالِ العلميَّةِ اليونانيَّةِ إلى العربيَّة، لكن إلى جانب ذلك كان لديه ميل مؤسف للجدل اللاهوتيّ.

منذ ذلك الوقت، اعتمدَ الخلفاءُ على مجموعاتٍ كبيرةٍ من المرتزقة الأجانب للحصول على الدعم، ولاسيَّما الأتراك، وأصبح قادتهم الأمراء الحقيقيين للإمبراطوريَّة حالما أدركوا قوتهم الخاصَّة، وقد تبيَّن مدى تقويض الخلافة العباسيَّة على نحو دقيق فجأة بطريقة مروّعة، حين قُتِل الخليفةُ المتوكل على يد خُدَّامه بأمر من ابنه، وتولَّى المنتصرُ قاتل أبيه العرشَ بدلاً منه (أيلول عام 861).

انتهتْ سلطةُ الخلفاء الآن، وأصبحوا مجرَّد ألعاب لمحاربيهم المتوحشين، كانت المقاطعات الأبعد، وأحياناً الأقرب منها، مستقلة عمليًّا، لقد اعترفَ الأمراءُ رسميًّا بالخليفة ملكاً لهم، ونقشوا اسمَه على عملاتهم المعدنيَّة، وأعطوه الصدارة في الصلاة العامَّة، لكنَّها كانت تكريمات من دون أيَّة قيمة ثابتة، في الواقع، استعادَ بعضُ الخلفاء قدراً من القوة الحقيقيَّة، لكن فقط كحكَّام لدولة قد ضعفت جداً، أمَّا من الناحية النظريَّة، فاستمرَّ وهمُ إمبراطوريَّة الإسلام غير المقسمة، لكنَّها لم تعد حقيقة واقعة منذ وقت طويل، واستمرَّت ألقاب الخليفة؛ أمير المؤمنين، الإمام، في إثارة بعض الخشوع، أصرَّ جهابذة القانون من الفقهاء على أنَّ الخليفةَ يجبُ أن يتولَّى الحكم في كلّ مكان، ويسيطر على المناصب القضائيَّة جميعها، في الأمور الروحيَّة على الأقلّ، لكن حتى من الناحية النظريَّة، كانتْ مكانةُ الخليفة بعيدةً جداً عن مكانة البابا، ولا تقارن بها للحظة من الناحية العمليَّة، إذ لم يكن الخليفة قط رأس تسلسل هرميّ حقيقيّ، في الواقع، لا يعرف الإسلام كهنوتاً يمكن أن يقومَ عليه هذا النظام.

نجح بنو بويه في القرن العاشر بوصفهم مغامرين فقراء، وهم ثلاثة أشقاء تركوا جيلان (المنطقة الجبليَّة في الزاوية الجنوبيَّة الغربيَّة لبحر قزوين) التي تحوَّلت بصعوبة، في الاستيلاء على السلطة ذات السيادة على مناطق واسعة وعلى بغداد بحدّ ذاتها، حتى أنَّهم اقترحوا على أنفسهم عزل العباسيين وتنصيب أحفاد علي على العرش، ولم يتخلّوا عن الفكرة إلا لأنَّهم كانوا يخشون أن يمارسَ خليفةٌ من بيت علي سلطةً كبيرةً جداً على جنودهم الشيعة، وبالتالي يصبحون مستقلين؛ بينما، من ناحية أخرى، يمكنهم الاستفادة من هذه الجيوش في أيّ أعمال عنف يختارونها ضد الدمية العباسيَّة التي شغلت مكان المنصور.

إنَّها المرحلةُ التي شهدَتْ نجاحات عظيمة للشيعة لأوَّل مرة، إذ نشأتْ تدريجيَّاً، من بين ما كان في الأصل حزباً سياسيَّاً، طائفةً، أو بالأحرى عدداً من الطوائف، وتطوّرت عقيدةُ حقِّ علي وأحفاده المقدَّس بتأثيرات خارجيَّة، مسيحيَّة وفارسيَّة، تدريجيَّاً إلى تأليه كامل أو جزئيّ، لقد وُجِد في بداية العصر العباسيّ من درس ألوهيَّة علي من دون أيّ مؤهل، وإن رفض غالبيَّة الشيعة ذلك بقوَّة، فإنَّهم مع ذلك يؤمنون بنور إلهيّ خارق للطبيعة لعلي وأحفاده الأئمة، أو أنَّ روحَ الله قد انتقلت من واحدهم إلى الآخر، وفي وقت مبكر من عام 750، حظيتْ أحلامُ العودة المسيانيَّة لـ «الإمام الخفي» بتقدير، ولُعِنت أسماء أبي بكر وعمر وعائشة بشدَّة أكثر من أسماء الأمويين، هنا كما في الأمور الأخرى، جرى التخلي عن أساس الإسلام، لكن كتم الرجال ذلك عن أنفسهم طبعاً، من خلال

وضع تفسيرات مجازيَّة على الكتاب المقدَّس، والوقوف ضدّ الأحاديث (المزيفة جداً) أو «سُنَّة» أهل السنَّة، وهي سُنَّة مزيفة خاصَّة بهم، إضافةً إلى ذلك، من الشيعة البسيطة التي ما تزال إسلاميَّة في الأساس، أدَّتْ العديدُ من الروابط الوسيطة إلى طوائف وثنيَّة غريبة، بعدّها فروعاً ما يزال لدينا منها (على سبيل المثال) الدروز والنصيريون.

كانتْ أوَّلُ إمبراطوريَّة شيعيَّة على نطاق واسع هي إمبراطوريَّة الخلفاء الفاطميين، التي أسَّسها عبيد الله (حوالي عام 910)، وهو سليل حقيقيّ أو مزعوم لعلي، لقد فهم جيداً كيفيَّة الاستفادة من سذاجة الأمازيغ حتى يصبح سيِّداً على مناطق شاسعة في شمال أفريقيا، لكن صلاته وصلت أيضاً إلى مناطق بعيدة في آسيا، سمح هو وخلفاؤه لأنفسهم أن ينظرَ إليهم أتباعهم المقربون على أنَّهم كائنات خارقة للطبيعة، إذ يقول شاعر بلاط (حوالي عام 970) عن الفاطميين الذين يخدمهم أشياء قد يسمح المسلم الحقيقي أن تُقال عن النبي نفسه في أحسن حال، وهكذا يمكننا إلى حدّ ما أن نفهمَ كيف حدث أن عَبِدَ الدروز أحدهم، وهو الحاكم المجنون (الحاكم بأمر الله، 996-1021)، بوصفه الله، لكن بينما فرض الفاطميون بعض ضبط النفس في مملكتهم الخاصَّة، حيث كان الشيعة أقليَّةً بالتأكيد، فقد أطلقوا العنان لمؤيديهم في أماكن أخرى، استغل القرامطة في المنطقة العربيَّة حماس البدو للنهب لتحقيق مآربهم الخاصَّة، وهدّدوا عاصمة العباسيين، انقضوا على قوافل الحجاج، وفي نهاية المطاف، اخترقوا طريقهم عنوةً في إحدى المناسبات إلى مكة خلال موسم الحج، وارتكبوا

مذبحة مروعة، وسرقوا الحجر الأسود من الكعبة (930)، لقد كان هذا خرقاً صريحاً للإسلام، أنكر الخليفة الفاطميّ القرامطة، لكنّنا نعلم أنّهم تصرفوا بإيعازٍ منه، وبعد ذلك (951) أعادوا ترميم الحجر المقدّس مرة أخرى مقابل مبلغ كبير بأمر من خليفته، أصبح الفاطميون بعد غزوهم لمصر (969) أقوى أمراء الإسلام، وبدا في بعض الأحيان كما لو أنَّ دفةَ السلطة قد انتقلت من العباسيين، إضافةً إلى ذلك، كان الفاطميون حكاماً ممتازين، وجلبوا الازدهار إلى مصر بدرجة عالية، لكنَّهم تشاركوا أيضاً في المصير المعتاد للسلالات الشرقيَّة في النهاية، إذ عاش العباسيون ليشهدوا السقوط التام (1171) لأسوأ منافسيهم، واستمروا في التمتع لما يقرب من قرن من الزمان بالرضا الفارغ عن تسميتهم في الصلاة العامَّة في مصر بوصفهم أمراء المؤمنين، ومنذ ذلك الحين لم يكن هناك خليفة شيعيّ آخر مطلقاً.

في تاريخ الشعوب الإسلاميَّة، كانتْ الخلافاتُ السياسيَّةُ والدينيَّةُ التي استندتْ إلى الحقّ في الخلافة هي الأكثر أهميَّة إلى حدّ بعيد، لكن إلى جانب ذلك كان يوجد عدد كبير من الخلافات العقائديَّة البحتة، إضافةً إلى ذلك، أثار الإسلام السؤال القديم والجديد دوماً حول ما إذا كان الإنسان، وإلى أيّ مدى، هو عنصر حرّ أو فاعل في مقاصده وأفعاله.

يعلمنا القرآن عموماً حتميَّة فظة، فبحسبه إنَّ الله هو خالق كلّ شيء، بما في ذلك تصرفات البشر، إذ يهدي من يشاء ويقود من يشاء إلى الضلال،

لكن في مرحلة مبكرة جداً، بدأتْ بعضُ النفوس الورعة تشعر بالإهانة من الفكرة الرهيبة القائلة إنَّه لا بدَّ أنَّ الله قد عيّن مسبقاً جموعاً من البشر للخطيئة وآلام الجحيم الأبديَّة، إذ لا يمكنهم التعرف على البرّ الإلهيّ إلا إن ترك الله البشر أحراراً في الاختيار بين الخير والشرّ، وحدَّد القصاص وفقاً لطبيعة الاختيار، ووجدوا نقاط دعم لعقيدتهم هذه في القرآن نفسه؛ فقد عامل محمَّد، الذي لم يكن سوى مفكر منسجم، الإنسان في آياته على أنَّه حرّ، الواضح أنَّ معلماً محبوباً للدين، مهما كان ميله إلى الحتميَّة، سيجد نفسه حتماً بين الفينة والأخرى موجهاً حديثه لمستمعيه، في عظاته عن الإيمان والفضيلة، كما لو أنَّهم يتمتعون بحريَّة الإرادة.

دُعي الناس الذين علَّموا في هذا الأسلوب بـ «القدريين»، لعلَّهم لم يكونوا معفيين بالكامل من التأثيرات المسيحيَّة، فقد كان نهجُ خلفائهم، المعتزلة («المنشقين»)، أكثر منهجيَّة، إذ شكلوا مدرسة ذات نزعة عقلانيَّة قويَّة، وبمساعدة الديالكتيك [أي الجدلية] اليونانيَّة، التي أصبح العرب على دراية بها بدرجة محدودة في البداية، ومن خلال السوريين بعد ذلك بشكل كامل، ضيقوا على خصومهم المتشددين إلى حدّ القنوط، كما عارضوا بحماس خاص الافتراض القائل إنَّ القرآن غير مخلوق.[1] تتناقضُ هذه العقيدة بالتأكيد على نحوٍ صارخ مع الموقف الأساسيّ للقرآن نفسه، ففي هذا الصدد، كان المعتزلة هم المتشددون، لكن من الصعب في خضم

(1) يُنظر أعلاه.

الجدل أن يذهبَ البعض إلى أبعد من ذلك، ويفكروا في القرآن بصورة أكثر استخفافاً ممَّا يليق بمسلم.

إنَّ البدايةَ العادلةَ لحركة تقدميَّة حقيقيَّة شاركتْ في ذلك قد تأكدتْ حتماً في الإسلام في مرحلة مبكرة للغاية، لم يكن من الممكن أن تحرز مدرسة المعتزلة أيّة أهميَّة على الإطلاق لولا تفضيلها من بعض العباسيين الأوائل، فقد انحاز المأمون بوجه خاص بحماسة كبيرة لعقيدة خلق القرآن، لكن ألا يكون ذلك سبباً لوصفه بأنّه «صديق الفكر الحرّ» بأيّ حال من الأحوال، يظهر من حقيقة أنَّه فرض عقوبات قاسية على هؤلاء اللاهوتيين الذين أعلنوا صراحة تمسكهم بالعقيدة المعاكسة التي كانت سائدة عموماً، وكذلك خلفاؤه أيضاً، وصولاً إلى المتوكل، الذي عكس حالة الأمور، وتسبب في تعليم أنَّ القرآن غير مخلوق، ويوجد جدل آخر يشير إلى الصفات الإلهيَّة، إذ ينسب القرآن في تجسيده البسيط الصفات الإنسانيَّة إلى الله في كلّ مكان، يتحدث أيضاً عن يديه، والعرش الذي يجلس عليه، وما إلى ذلك، تناول المسلمون الأصليون هذا الأمر مثل ما كُتِب، لكن، فيما بعد، اصطدم الكثيرون به، وسعوا إلى وضع هذا التفسير على المقاطع التي ستضمن للقرآن تصوراً أنقى عن الله، فقد أنكر البعض الصفات الإلهيَّة كلّها مهما كانت، إذ كونها أبديّة بالتساوي مع ذاته، فإنَّها، إن قُبلت، ستدمر الوحدة الإلهيَّة حتماً، وتقيم شركاً حقيقيَّاً، لم يعترف الكثير إلا بصفات مجرّدة معيّنة، ومن ناحية أخرى، حافظ البعض على نحو إيجابيّ على ماديَّة الله؛ بعبارة أخرى، تجسيم من النوع الأكثر حمقاً؛ إذ

إنَّ محمَّداً قد رفضه.

حافظ المعتزلة على تفوقهم الديالكتيكيّ حتى وضع الأشعري (في الثلث الأوَّل من القرن العاشر)، الذي تتلمذ في مدارسهم، المنهج الجدليّ «الديالكتيكي» في خدمة المذهب السنيّ، وهو من أنشأ النظام الدوغمائيّ المتعصب، لم يتفق معه الدوغمائيون اللاحقون في النقاط جميعها طبعاً، وقد عدَّه البعض منهم، بسبب بعض بقايا العقلانيَّة في تعاليمه، مبتدعاً، ومنذ زمن الأشعري، كانت العقيدة المقبولة عموماً فيما يتعلَّق بالنقاط الثلاث الخلافيَّة التي ذكرناها للتو هي: (1) خلق الله أعمال الإنسان الصالحة والشريرة، على الرغم من أنَّ الإنسان يتمتع بقدر معيّن من الاستقلاليَّة في امتلاكها، (2) القرآن خالد وغير مخلوق، في الواقع، لا يؤكد البعض هذا إلا فيما يتعلَّق بأصل الكتاب المقدَّس في السماء، لكن استوعبه البعض الآخر من أقوال ورسائل الكتاب كما هي موجودة على الأرض، (3) لله حقّاً الصفات المنسوبة إليه في القرآن، إنَّها مسألة إيمان أنَّ لديه يدين وقدمين، ويجلس على عرشه، وما إلى ذلك، لكن من الفضول الدنيويّ الاستفسار عن كيفيَّة وجود هذه الأشياء، فمهما كانت الاستثناءات التي قد يتخذها الإنسان لأيّ من هذه المذاهب، فإنَّ الأوَّل والثالث على الأقلّ يتفقان بالكامل مع القرآن -حتى فيما يتعلق بعدم منطقيتهما- ربَّما أيقظ المعتزلة، مثلهم مثل الحركات العقلانيَّة الأخرى التي تظهر من حين إلى آخر في الإسلام، تعاطفنا، لكنَّهم يتناقضون بوضوح مع جوهر الدين الفائق للطبيعة على نحو صريح، وهذا يفسر لاحقاً كيفية بقاء عدد قليل

من الآثار المتفرقة للمعتزلة، علينا أن نكونَ حريصين على نحوٍ خاص على عدم إيلاء أهميَّة غير ضروريَّة لهذه الخلافات في المذهب، فبالكاد تأثر بها الشعب المحمديّ كجماعة، وينطبق الشيء نفسه على الاختلافات العقائديَّة الأخرى، ما لم يصادف أن يكونَ لها جانب سياسيّ أيضاً، على سبيل المثال: الخلاف بين المتشددين الذين عدوا كلّ خطيئة كبرى «كفراً» عقوبتها جهنم، وأولئك الذين أبرزوا الرحمة الإلهيَّة، من جهة أخرى، كانت الأولى هي عقيدة الخوارج، الذين أعلنوا عثمان وعلياً وعائشة ومعاوية والعديد من «صحابة» محمد كفاراً، بينما ترك خصومهم، وفقاً لمنطق الرسول، الأمر لله ليدين هؤلاء وكذلك الآخرين الذين ربَّما وقعوا في الخطيئة.

إنَّ المذاهبَ اللاهوتيَّةَ الفقهيَّةَ ذات أهميَّة عمليَّة أكبر بكثير من العقائديَّة، إذ تشمل «الشريعة» في الإسلام الشعائر أيضاً بالمعنى الأوسع للكلمة، على سبيل المثال: أركان الصلاة، الوضوء «الطهارة»، والحجّ، وتستند الشريعة مثل العقيدة على القرآن والحديث، لكن هذا الحديث هو تركيبة متغايرة للغاية، إذ يُزعم أنَّ مصدرَه كلّه هو النبيّ، ويمكن، في الواقع، أن يعزى جزء كبير منه إليه، إلا أنَّ قدراً كبيراً له أصل آخر.

لا يمكن أن تكونَ تعاليمُ محمَّد ومثاله كافية في الواقع كقواعد حياةٍ لشعوب متطورة للغاية، فشريعة العرب وأعرافهم، وأكثر أراضي الحضارة القديمة التي دخلت الإسلام، آراء المذهب، الميول السياسيَّة،

والعديد من الأشياء الأخرى، هي المصادر الحقيقيَّة للكثير ممَّا طُرِح على أنَّه مبدأ أو ممارسة النبي، لم يبدأ الفقهاء برؤية كيفيَّة اختلاق الأحاديث على نطاق واسع إلا في الآونة الأخيرة، إذ ساد في كثير من الحالات الاعتقاد بحسن نيّة أنَّه كان للمرء ما يسوغه في أن ينسبَ للنبيّ على الفور كلّ ما يعتقد أنّه حقّ في حدّ ذاته ويستحقه، لكن نشأت تزويرات أخرى من دوافع خسيسة، وظهرت في هذا الكم الهائل من الأحاديث، التي تدعي أنَّها ملزِمة للمؤمنين الحقيقيين جميعهم، العديد من التناقضات، وبالتالي نشأت، ابتداءً من القرن الثامن، مجموعة متنوعة من المذاهب التي حدّد معلموها لتلاميذهم قواعد الشريعة، بالمعنى الأوسع لتلك الكلمة، استناداً إلى تلك الأحاديث التي عدّوها هم أنفسهم صحيحة.

إنَّ الدافعَ إلى التوفيق بين الاختلافات الداخليَّة، التي كانت قويَّة للغاية في الإسلام، لم يكن ناجحاً بالفعل في إزالة التناقضات في مذاهب الشريعة، لكنَّه تمكن من توسيع نطاق الاعتراف إلى أربعة منها (التي سرعان ما ألقت كلّ الآخرين في الظل) بوصفها سنيَّة على حدّ سواء، اختلفت هذه المذاهب السنيَّة عن بعضها البعض في عدد من التفاصيل الفقهيَّة والشعائريَّة، لكنَّها، من الناحية العمليَّة، كانت واحدة في جميع المبادئ الأكثر أهميَّة، فكلّ سنّيٍ ملزمٌ بالتقيد بتوجيهاتِ واحدةٍ أو أكثر من المذاهب الأربعة، وهي تخوض بعمق في شؤون الحياة اليوميَّة، خاصة فيما يتعلّق بأشكال العبادة وتنظيم الأسرة، لكنَّهم، من ناحية أخرى، عقائديون جداً، غالباً ما يفترضون كعادتهم دولة مثاليَّة، لم يكن لمثلها

وجود حتى في عهد عمر، ولا بأيّ حال من الأحوال الظروف الفعليَّة للاستبداد الشرقيّ الجشع، اختفى المذهب الحنبليّ من بين هذه المذاهب بالكامل تقريباً، وتوزع المذهب الحنفيّ والشافعيّ والمالكيّ على بلاد الإسلام السنيّة؛ تختلف الشريعة الشيعيَّة عن تلك الموجودة في أيّ من هذه المذاهب الأربعة.

إنَّ السلطةَ العليا في الشريعة، كما هو الحال في أمور أخرى، هي إجماع العالم المحمّديّ بأسره؛ أي الرأي المقبول عموماً، فهي تقرر صحة الأحاديث، وكذلك تفسير القرآن، لأنَّه في الإسلام، كما في الطوائف الأخرى، فإنَّ التفسيرَ المقبولَ للكتاب المقدَّس هو الذي يحظى بأهميَّة بالنسبة إلى المؤمنين فقط، مهما كان الاختلاف بين هذا التفسير والمعنى الأصليّ صارخاً، إنَّ الإجماعَ في كامل الجماعة المحمّديَّة هو مثال لم يتحقّق فعليّاً مطلقاً، لكن مع ذلك له أهميَّة عمليَّة كبيرة، فمن خلال وسائله، أصبح الاعترافُ التدريجيّ ممنوحاً لأشياء كانت غريبة، بل حتى معارِضة لتعاليم محمَّد، مثل عبادة القديسين على سبيل المثال، إنَّها تتسامحُ بصمت مع أنواع الاختلافات المحليَّة جميعها، ولكنَّها تمارس ضغطاً ثابتاً نحو إدراك دائم لتوجيهاتها الملزمة.

منذ مرحلة ازدهار العباسيين وما بعدها، انتشر الفكر الحرّ إلى حدّ كبير بين الطبقات الأكثر ثقافة، إذ غامر بعض الشعراء بالسخرية أو الاعتراض، بشكل أو بآخر، على التعاليم الأساسيَّة للإسلام، وحتى الدين

نفسه، و قد عبّر الكتّاب الفارسيون في النثر والشعر عن كرههم للعروبة، كما لاحظ القارئ المفكر أنَّ الكراهيةَ امتدَّتْ إلى الدين العربيّ، للمرء أن يتخيلَ ماهي التعبيرات المستخدمة في المحادثة في هذه الأوساط، لقد اختلق الفلاسفة المدرسيون في معظم الأحيان لتكييف أنفسهم ظاهريّاً مع العقيدة الإسلاميَّة، وفي كثير من الأحيان بحسن نية بالتأكيد، إلا أنَّ اللاهوتيين، بعقلانيَّة، أوقعوهم في ريبة عميقة، إذ يتوافق الوثنيّ القديم أرسطو، الذي استندوا إليه، مع الإسلام بدرجة أقلّ من المسيحيَّة.

قوبلت كلّ أنواع الأفكار ـ بعضها رائع جداً، من أصل فارسيّ وأجنبيّ آخر، وغير إسلاميَّة بشكل واضح ـ من وقت لآخر بالقبول في العالم المتحضر، في الواقع، لقد أُعدم مراراً وتكراراً مفكر حرّ جريء جداً أو زنديق، لكن على نحوٍ عام سُمح للناس بالتحدث والكتابة بحريَّة، فقط لو أضفوا لمسة من الصبغة المحمَّديَّة.

لا يوجد في الإسلام محاكم تفتيش، ويُقبل كمسلم المرء الذي يعترف به ظاهريّاً، مهما كانت مشاعره الحقيقيَّة مشكوكاً فيها، تبعاً لذلك، في بعض الحالات، عدَّ الناس من كان تفكيرهم وتعاليمهم غير إسلاميين، مثل الشاعر الصوفيّ الشهير أبي العلاء المعري (973-1057)، متدينين، وحتى أتقياء، لكن يمكننا أن نرى من هذه الحقيقة بالذات أنَّ الخطرَ على الإسلام لم يكن بأيّ حال من الأحوال كبيراً جداً، إذ حُصرت هذه الأفكار في دوائر ضيقة جداً من المفكرين والشعراء، أو المسرفين، ولم

يمضِ وقت طويل حتى تلاشت مرة أخرى، لم يتسلَّل شيء من هذا كلّه إلى جموع الشعب الهائلة، وفي هذا تكمن قوَّة الإسلام.

كان تصوف الصوفيين خطراً أكبر على الدين السائد، فالدافع إلى الزهد والاستبطان، الذي لم يكن نشطاً جداً في حالة محمَّد نفسه إلا في مرحلة واحدة من حياته فحسب، وجد تغذية جديدة بعد أن أصبح أتباعه سادة البلدان المسيحيَّة المجاورة، حيث كان هذا النوع من التقوى ناجحاً للغاية، لقد كان الأمر برمته سامياً حقاً، وأثناء بروز العنصر النشط الشبابيّ في الإسلام، لم يكن هناك خطرٌ من ممارسته تأثيراً موهناً عليه، لكن ارتبطت بعد ذلك الأفكار الفارسيَّة والهنديَّة بهذا التصوف؛ إذ سعى الصوفيون إلى صبّ جمّ اهتمامهم في الله، وتوصلوا إلى المفهوم الهنديّ لـ «كلنا واحد»، الذي يتناقض مع الإسلام.

في الطريقة الهنديَّة، وُضعتْ قواعد منهجيَّة لتحقيق النصر الصوفيّ على القيود الأرضيَّة، من اعتقد أنَّه نجح في هذا قد غامر بالابتعاد عن تعاليم الدين الإيجابيّ، وسُمح للقانون الأخلاقيّ في الغالب أن يسيرَ بالطريقة نفسها، عدَّ المتحمس، الذي يؤمن في الأساس بما فوق الطبيعة، واندمج في الكلّ والواحد، نفسه على الفور صانع العجائب، وكان من السهل أن يحظى باحترام أتباعه، ما هي حدود قوانين الطبيعة (التي لم يدركها الشرقيون في الواقع) بالنسبة لمن أحدث قفزة من المحدود إلى اللانهائي؟

تعمل أرقى وأقسى صفات الروح البشريَّة معاً هنا في كثير من الأحيان، إذ نجد بين الصوفيين أرواحاً عميقة؛ إنّهم متحمسون رائعون، حالمون عظماء، وشعراء حسيون، والعديد من الحمقى والمارقين، وأدّى الطابعُ المنهجيُّ لأسلوبهم، الذي توجب تعلمه، والانطباع الذي تولده شخصيَّة الصوفيين القياديين، إلى تشكيل المذاهب والطُرُق، لدينا هنا نوع من الرهبنة، ولو أنَّه من دون عزوبة وعهود دائمة، حيث يعيش الفقراء أو الدراويش (أي «الفقراء») على هبات أو مؤسَّسات دينيَّة، لكنَّهم غالباً ما يقومون ببعض الدعوات المدنيَّة، إنَّهم يواظبون على ممارسات زهد منتظمة، غالباً ما تكون ذات طابع استثنائيّ جداً، لتحقيق ما هو «فوق حسيّ»، وبهذه الوسائل يفرطون في تحفيز الأعصاب، يرهقون الجسد والروح، ويصابون بجنون مؤقت، مهما كان الازدهار الذي أنتجته الصوفيَّة جيداً، ومهما تسارع تأثيره على الشعر الفارسيّ، فإنَّ وجودَ الدراويش، الذي كان له بالغ الأثر في البلدان الإسلاميَّة جميعها تقريباً، يعدّ مؤذياً عموماً، أمَّا بالنسبة إلى البقيّة، فاعتقد معظم الصوفيين أنَّهم مسلمون صالحون. تمكنوا أيضاً، من خلال التفسير المجازيّ، من التوصل إلى تفاهم مع القرآن، فلا يمكن للكثيرين أن يروا بوضوح كيف يتعارض على نحو أساسيّ مفهوم الواحديَّة عن الله في التصوف مع التوحيد الصارم للقرآن، وبطبيعة الحال، فإنَّ الغالبيَّةَ العظمى من الدراويش هم ساذجون جداً وسطحيون بحيث يسيرون على خطا المعلمين القدامى، يرقصون ويعولون لمجد الله بينما يصلي الرجال الآخرون، يُعدُّ الناس

الدراويش دعامة من دعائم الإسلام، والواقع أنَّ بعضَ هذه الأخويات قد أثارت العداء ضد الكافرين جميعهم بطريقة مميزة جداً، لا شك في أنَّ غير الإسلاميين هم الأفكار الأساسيَّة التي تقوم عليها هذه الطُرُق/ المذاهب، ومن ناحية أخرى، تظلُّ بدهيَّات الإسلام البسيطة ثابتة.

الإمبراطوريَّة العثمانيَّة:

حوالي عام 1000، كان الإسلامُ في حالة سيئة للغاية، إذ لم تعدْ الخلافةُ العباسيَّةُ منذ زمن بعيد ذات أهميَّة، وقد انهارتْ قوَّة العرب منذ وقت طويلة، كان هناك عدد كبير من الدول الإسلاميَّة الكبيرة والصغيرة، لكن حتى أقواها؛ أي الفاطميين، كانت عاجزة إلى حدّ كبير عن منح القوَّة للجميع؛ إذ إنَّها كانت شيعيَّةً، في الواقع، فُقِدتْ الأقاليمُ الكبيرة التي غزاها الخلفاء الأوائل مجدداً لصالح البيزنطيين، الذين توغلوا مراراً وتكراراً في الأراضي المحمَّديَّة، وفي هذه المرحلة جاء عنصر جديد لمساعدة الدين، ألا وهو الأتراك، لطالما لعب المحاربون من تركستان دوراً في تاريخ الممالك الإسلاميَّة، لكنَّهم جاؤوا الآن هجرة جماعيَّة، تقدَّم الأتراك بأعداد كبيرة من مواقعهم في آسيا الوسطى، وتحوَّلوا مؤخراً إلى الإسلام، وألقوا بأنفسهم في المقام الأوَّل على أراضي بلاد فارس، لقد تسبب هؤلاء البدو في دمار مروع، وداسوا على أرض الحضارة المزدهرة للأراضي الشاسعة، ولم يساهموا بأيّ شيء تقريباً لثقافة الجنس البشريّ، لكنَّهم عزَّزوا دين محمّد بقوَّة.

تبنّى الأتراكُ الوقحون بحماسة الدين الذي كان في متناول قواهم الفكريَّة، وأصبحوا أبطاله الحقيقيين، المتعصبين في كثير من الأحيان، ضد العالم الخارجيّ، لقد أسَّسوا إمبراطوريَّة السلاجقة القويَّة، وفتحوا مناطق جديدة للإسلام في الشمال الغربيّ، وبعد سقوط الإمبراطوريَّة السلجوقيَّة، استمرّوا في كونهم الشعب الحاكم في جميع أجزائها القديمة، فلو لم يحي الأتراك الطابع الحربيّ للإسلام، لربّما كان لدى الصليبيين بعض الأمل بنجاح دائم.

لكن تُبع هذا التدفق التركيّ بتدفق آخر يُنذر بالشر بالنسبة إلى الإسلام، إذ قاد جنكيز خان المغول والأتراك إلى الأراضي المحمَّديَّة عام 1220، واستولى حفيده هولاكو (كانون الثاني 1258) على بغداد، العاصمة المحمَّديَّة، فوضع نهاية للخلافة العباسيَّة، كان الوثنيون البغيضون سادة آسيا، لكن سرعان ما استحوذ الإسلام، بمعتقداته البسيطة وشعائره المهيبة وطابعه العمليّ، على هؤلاء البرابرة، ثم بعد خمسين عاماً من احتلال بغداد، دخل المغول الذين يملكون رعايا مسلمين الإسلام، ومع ذلك، فإنَّ الأضرارَ الفظيعة التي ألحقوها بالأراضي الإسلاميَّة غير قابلة للإصلاح، كانتْ بابل، موطن الحضارة البدائيَّة، المقرّ الرئيس للثقافة المحمَّديَّة حتى ذلك الحين، لكن منذ أن وطأها المغول، أمستْ خراباً.

خلال عهد الأتراك العثمانيين، بات الإسلامُ مجدداً رعب العالم المسيحيّ، إذ تحقَّقَ الحلم القديم بغزو القسطنطينيَّة وتدمير الإمبراطوريَّة

الرومانيَّة (1453) بالكامل، وعند احتلاله لمصر عام 1517، نصَّبَ سليم الأوَّل نفسه خليفةً، لقد منح سلاطين مصر، بعد دمار بغداد، حمايتهم إلى سليلٍ من الأسرة العباسيَّة، أعطوا له لقب الخليفة (1261)، فكانوا خلفاء شكليين مماثلين، من دون أيّ شكل من أشكال للسلطة، «حكموا» هناك حتى الفتح العثمانيّ، لكن يمكن الحكم على مدى ضعف قلق العالم الإسلاميّ بشأنهم من حقيقة أنَّ المؤرخَ الفلسفيّ العظيم ابن خلدون (تونس، 1332–1405)، في مقدّمة كتابه «تاريخ العالم»، حيث تحدّث بشكل شامل للغاية عن الخلافة، الدولة الروحيَّة والعلمانيَّة، لم يلمِّحْ مطلقاً إلى هذا الادعاء، لكن مع تسلحها بقوّة الإمبراطوريَّة التركيَّة الهائلة آنذاك، أخذتْ الخلافةُ الآن مرة أخرى جانباً آخر، فعلى الرغم من افتقار سلطان إسطنبول إلى صفة واحدة عدَّها المعلمون السنَّة جميعهم تقريباً أساسيَّةً في الخلفاء، وهي النسب من قبيلة النبي «قريش»، إلا أنَّ ادعاءاته حظيتْ بتقدير واسع، لأنَّ نجاحاته ملأتْ قلبَ كلّ مسلم بالفخر والفرح، وقدَّمت مدن مكة والمدينة والقدس المقدَّسة البيعة له بوصفه أميرهم، فضلاً إلى أنَّ الخلافة لم تؤدّ إلى أيَّة زيادة فعليَّة في قوَّة السلاطين العثمانيين، الذين لم يعلقوا عليها قيمة كبيرة عموماً، فلم يثبِّتوا على عملاتهم المعدنيَّة لقب «الخليفة» أو «الإمام» أو «أمير المؤمنين»، ولم يمتلكوا في الواقع سلطة روحيَّة على المسلمين الذين لم يكونوا رعاياهم، لعلَّه أمر خطير في الوقت ذاته بالنسبة إلى الإمبراطوريَّة العثمانيَّة أن يتوقف ذِكر السلطان في الصلاة العامَّة في مكة والمدينة على أنَّه الحاكم والخليفة،

وهو أمر قد يحدث إن خسر سورية إضافة إلى مصر، بالنسبة إلى مملكة تنهار ببطء ولكن بثبات، فإنَّ إزالةَ دعامة ضعيفة قد يكون لها عواقب وخيمة، يبدو أنَّه في الاضطرابات الأخيرة في مصر قبل الاحتلال الإنجليزيّ، استُخدمت هذه الفكرة بالفعل، وبالتالي أثارت الذعر في القسطنطينيَّة، لا بدَّ من القول إنَّ أشرافَ مكة بوصفهم خلفاء (وهو اقتراح جرى تقديمه) قد لعبوا دوراً ضعيفاً، فهم من نسل علي في الواقع، ومن ثم لديهم مطالبات بالكرامة أعظم بكثير من العثمانيين من الناحية النظريَّة؛ لكن أراضيهم صغيرة وفقيرة جداً، ولا يمكنهم بحكم الضرورة العيش إلا لصالح أمراء آخرين، إضافةً إلى ذلك، فإنَّ رؤساءَ الفروع المختلفة لهذه العائلة الغفيرة كانوا في صراع دائم مع بعضهم البعض بأسلوب عربيّ حقيقيّ، وأخيراً، لطالما اعتاد سلاطين المغرب أيضاً على تسمية أنفسهم «أمراء المؤمنين»، وهكذا، بالنسبة لمملكتهم على الأقلّ، فإنَّهم يطالبون صراحة بالسلطة الروحيَّة العليا.

بدا أنَّ المعارضةَ بين السنَّة والشيعة في أواخر العصور الوسطى قد أخذتْ في التلاشي، إذ قَبِل السُنَّة في وقت مبكر بعض الآراء الشيعيَّة، ولا سيَّما الاحترام المبالغ فيه الذي يتمتع به علي، من ناحية أخرى، لم يصلْ الشيعة جميعهم إلى حدّ إعلان أبي بكر وعمر كفاراً، وتحوّل أشراف مكة، الذين تحدثنا عنهم للتو، من كونهم شيعة معتدلين إلى سُنَّة بشكل غير محسوس، لكن بُثَّتْ حياةٌ جديدةٌ في العداء بين الطرفين حين نشأت إمبراطوريَّة عظيمة للشيعة أيضاً، في الوقت الذي بلغ فيه العثمانيون

السنيون أعلى سلطة، في بلاد فارس، لقيتْ عقيدة حقّ علي المقدَّس اهتماماً على نحو خاص، إذ تدينُ العقائدُ الشيعيَّةُ بتطورها للتأثيرات الفارسيَّة بشكل رئيس، نشأتْ الدول الشيعيَّة الصغرى أو الكبرى في الأراضي الفارسيَّة في أوقات مختلفة، لكن من خلال تأسيس الإمبراطوريَّة الصفويَّة[1] (حوالي عام 1500) أصبحتْ بلادُ فارس بالمعنى الدقيق للكلمة أرض المذهب الشيعيّ، بينما كانت في السابق (ما يجري التغاضي عنه غالباً) في جزء كبير منها سنيَّة، شكلت هذه الإمبراطوريَّة الشيعيَّة ثقلاً موازناً خطيراً للعثمانيين، ومن خلالها خُلقت انحرافات عديدة لصالح أوروبا مع أنَّها أكثر تضرراً بسبب ضغط الأتراك.

منذ سقوط الإمبراطوريَّة الصفويَّة في القرن الماضي، ما انفكت بلاد فارس تنحطّ أكثر فأكثر، وكانت الدولةُ والأمَّة أضعف بكثير ممَّا هي عليه في تركيا، بيد أنَّ الشيعةَ استولوا على بلاد فارس حصريّاً؛ فهي مليئة بالحياة، حتى أنَّها تمكنت في عصرنا من التخلص من فرع قويّ؛ أي طائفة «البابيين» المتحمسة الغريبة، التي زلزلت البلد بأكمله، ولم يُقضَ عليها نهائيّاً، إنَّ التناقضَ بين الشيعة والسُنَّة واضحٌ للغاية حتى يومنا هذا، والشرقيون، الذين لديهم شعور ضئيل بالوطنيَّة على نحو ملحوظ، لديهم حماس أكبر للدين، وما تزال الكراهية المريرة تفصل الفرس عن جيرانهم المسلمين ـ العثمانيين والعرب والأوزبكيين والأفغان وما إلى ذلك ـ لأنَّ

(1) «المملكة الصوفيَّة» في اللغة الإنكليزيَّة القديمة.

صحابةَ محمَّد لم يستطيعوا الاتفاق على من عليه أن يكونَ خليفة عثمان المقتول.

لقد مرَّ الإسلام، عموماً، بتغيير طفيف خلال الألف سنة الماضية، فانتشار التصوف والدراويش، مثل ما شَهدنا، لم يؤثرْ على إيمان الجموع، لقد منحتْ هذه الأشياء بطبيعة الحال حافزاً جديداً للاتجار بالقديسين والمعجزات، وينغمس الصوفي في الله ويتجاهل الأشياء الدنيويَّة، وعليه، فإنَّ الجموعَ تميلُ أكثر من اللازم لأن تأخذَ من قديسٍ مارق، الذي يقلده من دون تردد ويتفوق عليه، والرجل المجنون الذي لم يستطعْ أن يقدّمَ شيئاً للعالم بتاتاً؛ فالإيمان بالمعجزات متجذر في دم الشرقيين، ولم يكن المحتالون الدينيون، الذين هم في الغالب ضحايا الإيهام، راغبين في ذلك أبداً، لم يُشكِّك بحقيقة أنَّ القديسين قادرون على عمل المعجزات بشكل ضعيف إلا عدد قليل من اللاهوتيين، ووفقاً لذلك، فإنَّ القبورَ الحقيقيَّة أو المزعومة للقديسين قد بُجلت منذ زمن طويل بوصفها ينابيع نعمةٍ؛ فهي تؤدي إلى نشوء طوائف محليَّة، وفي كثير من الأحيان تكون بؤراً للتعصب، إذ ليس مصادفةً أنَّه في الاضطرابات الأخيرة في مصر ارتُكبت الفظائع ضد الأوروبيين في قبر أكثر القديسين المصريين تبجيلاً؛ وهو السيد البداوي في طنطا. تعود العديد من الأماكن المقدّسة لهذه الفئة إلى أصل مسيحيّ قديم، وبعضها يعود إلى العصور الوثنيَّة، ربطت كلّ أنواع الخداع، والخرافات الفجة، والكثير ممّا هو غير إسلاميّ تماماً نفسها بسهولة بمثل هذه الأماكن، صحيح أنَّه لا يوجد مسلم ملزم بالإيمان بأيِّ

من هذه الأشياء، ولا يوجد شيء اسمه قائمة قديسين موثوقة، حتى أنَّ بعضَ علماء المسلمين قد جادلوا في شرعيَّة عبادة القديسين تماماً، لكن بلا جدوى.

في منتصف القرن الماضي نشأتْ في موطن الإسلام عاصفة عنيفة من التزمّت ضدّ الردة السائدة، لم يقدّمْ الوهابيون أو أتباع عبد الوهاب أيَّة عقيدة جديدة، فقد كانوا مسلمين أصوليين تماماً، لكنَّهم خالفوا التقاليد حتى الآن، إذ سعوا إلى إلغاء بعض الانتهاكات التي جرى التغاضي عنها أو قبولها بموافقة عامَّة، وبالنسبة إلى هذا، واصلوا ذلك بصرامة تُذكِّر بعُمَر أكثر من النبي، إذ كانوا بعيدين عن رفض أنَّ محمَّداً كان رسول الله، لكنَّهم احتفظوا ببغضٍ بالاحترام المبالغ فيه الذي قُدّم لاسمه ومساكنه وقبره، لقد أدانوا عبادة القديسين بوصفها وثنيَّة، وحيثما ذهبوا دمروا قبور القديسين وأماكن الاستشهاد، أرادوا استعادة الإسلام الأصليّ، على سبيل المثال: فرضوا بجديَّة بالغة الحظر الشرعيّ على ارتداء الحرير، واتفاقاً مع العديد من علماء الدين، منعوا التبغ بعدِّه بدعةً، كانتْ المملكةُ التي أسّسوها نسخة من المملكة الإسلاميَّة الأصليَّة، لقد وحدوا بالقوة سكان المنطقة العربيَّة جميعهم تقريباً، لكنَّها لم تنجحْ في غرس روح الدين الحقيقيَّة في السواد الأعظم من البدو، وكان نظامهم الروحيّ الصارم مزعجاً لسكان مكة على نحو خاص؛ شعب ذو نزعة علمانيَّة شديدة.

كسرتْ جيوشُ محمَّد علي حاكم مصر مطولاً قوّة الوهابيين، لم

يخلُ الأمر من مجهود كبير، واستعادوا المدن المقدَّسة؛ مكة والمدينة، التي أصبحتْ تحت سيطرتهم عام 1803، وتوغلت في قلب مملكتهم (1814، 1815)، ومجدداً، بدأوا بداية أخرى في مرحلة لاحقة، لكن هذا لم يكن دائماً، فلا يمكن الحفاظ على تماسك دولة عربيَّة خالصة، قائمة على أساس الدين أيضاً، لأيَّة مدة من الوقت إلا من خلال حكام غير مألوفين، إنَّ المملكةَ الوهابيَّة، بدقيق العبارة، عاجزة في الوقت الحاضر، وهي خاضعة لشَمَّر الواقعة إلى شمالها وأميرها ابن الرشيد، وهو حاكم ذو حمية في الأزمنة السابقة، لم يعدْ الوهابيون يشكلون تهديداً على دمشق وبغداد، إذ بقي إصلاحهم للإسلام محصوراً في المنطقة العربيَّة، وحتى هناك من المستبعد أن يستمروا طويلاً، لكن تجدر الملاحظة أنَّ هذه الحركة الدينيَّة السامية البحتة بكامل طاقتها لم تنتجْ شيئاً جديداً، فقد كانت موجَّهةً حصرياً نحو بعث التوحيد الخالص.

بدا الإسلامُ لمدَّة طويلة في حالة إذلال عميق، حتى أنَّ الممالكَ الإسلاميَّة العظيمة كانت بلا قوَّة، وقد حكمتْ قِوَى مسيحيَّة الجزء الأكبر من العالم الإسلاميّ إلى حدّ بعيد، لكن دعونا لا نخدع أنفسنا فيما يتعلَّق بحيويَّة هذا الدين، فكم عدد الكوارث التي نجا منها بالفعل!

فور وفاة مؤسّسه، هدّده تمرد العرب بالفناء، وبعد ذلك بوقت قصير، تغيّرتْ الدولةُ من كونها روحيَّة (كما يتوافق مع طبيعتها الأساسيَّة) إلى دولة علمانيَّة، ونجت من التغيُّر، فقد فُككت إمبراطوريتها الموحدة

وتشظَّت، مزَّق المسلمون بعضهم البعض تمزيقاً في حرب حزبيَّة شرسة، فقد سرق القرامطة الحجر الأسود، بالاديوم الإسلام، وجعلوا الحجّ مستحيلاً لسنوات، وهو أحد أهم تعبيرات الحياة المحمديَّة، ودمّر المغول الوثنيون الخلافةَ وحكموا أكثر من نصف أراضي الإسلام لمدة طويلة من الزمن، فعوضاً عن أن تكونَ قادرة على شن جهاد مقدّس ضد الكفار، سقطت دولة إسلاميَّة تلو الأخرى في تلك الأيام تحت سيطرة الكفار إمَّا بشكل مباشر وإمَّا غير مباشر، لكن الإيمان بأنَّ لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله، وكلّ ما له علاقة بهذا الإيمان لا يتزعزع.

يبدو الإسلامَ الآن في سبيله للخروج من شبه جزيرة البلقان، رغم أنَّه أُجبر منذ زمن بعيد على ترك صقلية وإسبانيا، قد تكون قدرة الإسلام على إحكام سيطرته في كلّ مكان في آسيا وشمال أفريقيا محلّ شك، لكنَّه تقدَّم بثبات في الأرخبيل الهنديّ، فقد اكتسب قوَّة بين البدو الرحل في آسيا الوسطى مثل ما اتسع النفوذ الروسيّ، وحقَّق في وسط أفريقيا الفتح تلو الآخر، ولأنَّ توطيد القوَّة الأوروبيَّة في أراضي نيجيريا يجلبُ معه قدراً أكبر من الأمان في العلاقات، يمكن الافتراض أنَّ انتشار الإسلام سيُروَّج له بقوَّة هناك، لكن في القارة السمراء، التي لم تقدّم أرضاً مواتية للمسيحيَّة، فإنَّ قبولَ الإسلام يعني الارتقاء من أسوأ همجيَّة إلى ثقافة معيّنة، مهما كانت محدودة وحدِّية، والانضمام إلى الشعوب التي كانت في العصور الوسطى ذات حضارة أرقى من شعب أوروبا، إذ لعلّ صيد العبيد والاختطاف لن ينتهي إلا حين تصبح الشعوب الزنجيّة جميعها مسلمة.

إن كان الدين بلا شك في بعض الأحيان موضع شك وحتى سخرية بين الطبقات العليا في تركيا، فذلك نتيجة للعبث أكثر ممَّا هو للتفكير الجاد، وإن كانت الظواهر المماثلة تتجلَّى على نحو متواتر أكثر بين الفرس الطائشين المتيقظين وعديمي الضمير، فإنَّ ثباتَ الإيمان يبقى ثابتاً لا يتزعزع مع الغالبيَّة العظمى من الناس، حتى مع أولئك الذين يقصرون في أداء واجباتهم الشعائريَّة، ومن دون أيّ وخز للضمير، ومع استسلامه بهدوء لإرادة الله، يرى المسلم ممالكه تنهار، لكن علينا أيضاً أن نكونَ مستعدين لإيجاد قوَّة هذا الإيمان الذي يواصل ضبط النفس في نوبات التعصب المخيفة، وإن كانت الأحداث التي وقعت في مصر خلال التمرد الأخير قد أظهرتْ القليلَ من الطاقة والشجاعة التي تتحدَّى الموت، التي تُعزى إلى مزاج المصريين الواهن، فقد تؤدي الانتفاضة الكبيرة في سورية أو الأناضول إلى قدر كبير من المتاعب للأوروبيين، وتكمن أفضل قوَّة في ثورة الهند الكبرى عام 1856 في المسلمين، إذ يتلهف المسلمون الخاضعون لبريطانيا ودول أوروبيَّة أخرى على اللحظة التي سيكونون فيها قادرين على التخلص من نير الكافرين، وقد تكون نجاحات «الدراويش» في السودان بمثابة تحذير للأوروبيين من القوَّة التي ما تزال تكمن في الحماسة الحربيَّة للإسلام.

الفصلُ الثّالث

الخليفةُ المنصور

أسَّسَ العربُ إمبراطوريَّةً واسعةً بسرعةٍ كبيرة، لكن كان من الصعبِ الحفاظُ على تماسكها مع بعضها البعض لاحتفاظها بطابعها العربيّ الخالص، وتوجَّبَ على الأسرةِ الأمويَّة الحاكمة أن تتعاملَ مع كراهيةٍ سياسيَّةٍ ودينيَّةٍ خطيرةٍ جداً، وربَّما مع خطر أكبر، إذ حافظَ العربُ الذين يسيطرون على إمبراطوريَّةٍ عالميَّةٍ الآن على ما كانتْ عليه حرمتهم القديمة وحماستهم المفرطة لشرف العائلة والقبيلة التي طوروها في حياتهم الصحراويَّة، الاختلاف الوحيد الآن هو أنَّ وطنيَّتَهم القبليَّة لم تشرْ إلى التقسيماتِ الصغيرةِ التي يعيشُ فيها البدو بقدر ما تشير إلى المجموعاتِ القبليَّةِ الكبيرة التي لم تكن وحدتها سوى خيال على نحو جزئيّ، فإذا اعتمد حاكم على اليمنيين، يصبح المُضريون على الفور أعداءَه العلنيين أو السريين؛ أيُّ مسؤولٍ بارزٍ ينتمي إلى جماعةِ قيس يكرهه بنو كلب، ويكاد يكون كلُّ شخصٍ في السلطة على استعداد للتغاضي عن رجال قبيلته حتى تلك الجرائم التي يُعاقب عليها بشدَّة وعلى نحوٍ ملائم لدى أفراد

قبيلة أخرى، بناءً على ذلك، وجدَ الخلفاءُ الأمويون صعوبةً بالغةً في كبتِ الخلافاتِ الخاصَّة حتى بين عرب سورية، الموالين على نحوٍ عام، وكانت مشاكلهم أكبر بكثير في المقاطعاتِ النائية، حيث لم يكن هناك سوى القليل من التعاطف أو عدمه مع الأسرة الحاكمة، لم تكنْ مملكةُ الأمويين مطلقاً في حالة من النظام والازدهار المقبولين ما لم يُوجَد حاكمٌ فَطِنٌ وحيويٌّ في بابل (العراق) فضلاً عن السيادة القويَّة في سورية؛ لأنَّ مقرَّ السلطةِ العليا ارتبط بسورية بحكم الظروف التي نشأت فيها السلالة، في حين أنَّ المحافظاتِ الشرقيَّةَ النائيةَ جداً بحيث لا يمكن السيطرة عليها من دمشق، كانتْ تُدَار حكماً من العراق، لقد انتهى كلُّ نظامٍ مستقرّ مع عهد الوليد الثاني الموهوب لكن الماجن تماماً (743-744)، وتكفَّلَ صراعُ الأمويين المتعددين مع بعضهم البعض بما تبقى.

لقد أُضعِفَتْ المنطقةُ منذ مدةٍ طويلةٍ عن طريق جهود حزب دينيّ معادٍ للأمويين، إذ عدَّ أحفاد علي، الذين كانوا بوصفهم أقاربَ بصلة الدم، أحفاد النبي (من خلال ابنته فاطمة) في الواقع، أنفسهم أصحاب الحقّ الأقرب في العرش، مبعدين عن الأمويين قلوب الكثير من رعاياهم، وقد ساد توقع بأنَّ آلَ بيت محمد، فور بلوغهم السلطة العليا، سيملأ الأرض بالعدل مثل ما هي مليئة بالظلم الآن، لم يحظَ الأساتذة المتدينين وأتباع تعاليم الرب سوى بقليل من الإعجاب بالنسبة إلى حكم الأسرة الحاكمة، الذي كان ـ على الرغم من أشكاله الدينيَّة جميعها ـ علمانيَّاً بحتاً، وعلى الرغم من أنَّ انتفاضاتِ العلويين لم تنجحْ بسبب تخبط

قادتهم، فقد كلَّف الفشلُ بحدّ ذاته الأمويين ثمناً باهظاً؛ لأحفاد رسول الله العاجزين، الذين سقطوا أو قُتلوا، وأصبحوا شهداء في أعين الناس، الذين تضرَّعتْ دماؤهم إلى السماء من أجل الانتقام.

في غضون ذلك، وبهدوء تام، شرعتْ عائلةٌ أخرى بالعمل لجني ثمار جهود العلويين لمصلحتها الخاصَّة، وهم أبناء عمومتهم، العباسيون، فقد كان لدى عباس، الذي يرجع نسبهم إليه، موقفاً غامضاً إلى حدّ ما اتجاه ابن أخيه النبي، ويعدّ ابنه عبد الله أحد المكثرين لرواية الأحاديث الدينيَّة، ولكنَّه ـ من وجهة نظر الأبحاث الأوروبيَّة غير المتحيّزة ـ كاذبٌ ماكرٌ فقط، وقد جمع محمَّد حفيد عبد الله، وأبناؤه، بقدر ما نعرفهم، بين النشاط العمليّ الكبير وبين ازدواجيتهم و مكرهم الموروث، لقد عاشوا في عزلة كبيرة في «الحميمة»، وهي مكانٌ صغيرٌ جنوب البحر الميت، منعزل بعيد عن العالم على ما يبدو، لكن نظراً إلى قربه من الطريق الذي ذهب من خلاله الحجاج السوريون إلى مكة، فقد أتاح لهم فرصاً للتواصل مع أقاصي بلاد الإسلام، ومن هذا المركز، قاموا بحملة دعائيَّة باسمهم بمهارة فائقة، إذ امتلكوا ما يكفي من الذكاء ليروا أنَّ أفضلَ تربةٍ لجهودهم كانت خراسان البعيدة؛[1] أي المقاطعات الشماليَّة الشرقيَّة الواسعة للإمبراطوريَّة الفارسيَّة القديمة، فقد دخلَ غالبيَّةُ الناسِ هناك في

(1) من خلال خراسان في تلك الفترة علينا أن نفهمَ ليس فقط المقاطعة الفارسيَّة الحديثة التي تحمل هذا الاسم، بل مساحات شاسعة إلى الشرق والشمال أيضاً، كانت عاصمتها مرو، وهي الآن في أيدي روسيا.

الإسلام، واعتنقَ الكثيرون الدين الجديد بحماسة، قاتلوا بشجاعة من أجله ضدّ السكان غير المؤمنين في الشمال والشرق، إلا أنَّ الفرسَ المتحولين إلى الدين الجديد لم يحظوا باحترامٍ كبيرٍ من العرب المهيمنين، الذين نظروا إليهم على أنَّهم «عملاء»[1]، ورفضوا منحهم الحقوق الكاملة التي طالبوا بها بوصفهم مسلمين، زد على ذلك أنَّ حروبَ العربِ الداخليَّة اندلعتْ في تلك الأجزاء بعنف منقطع النظير، كان الأمرُ بالنسبة إلى الفرسِ قلَّةَ اكتراثٍ سواء انتصر اليمنيون أم المضريون أو بنو ربيعة، لكنَّهم شعروا بشدَّة بالدمار الذي لحقَ ببلدهم، وتبعيتهم؛ بالتالي كانتْ نسبةٌ كبيرةٌ من الفرس المتحولين حديثاً مليئة بالكراهية تجاه «إخوانهم العرب في الدين»، لقد انقلبتْ هذه الكراهية بسهولةٍ ضدّ الأسرة الحاكمة، التي حُدِّدَتْ على أنَّها مصدرُ كلّ إثم، ولا بدَّ أنَّ نزعتها العلمانيَّة كانتْ مسيئةً جداً للمتدينين بحقّ، إضافةً إلى ذلك، مالَ الفرسُ على نحو طبعيّ إلى مناصرة السلطةِ الشرعيَّة، وإلى الارتباطاتِ الحماسيَّة بالقادة الروحيين، وبناءً عليه، انجذبوا بأعداد غفيرة إلى العقيدة القائلة: يحقّ لـ «آل النبي» (أهل البيت) وحدهم السيطرة على مملكته ومؤسسته الدينيّة.

عملَ مبعوثون مختارون بدقة من العباسيين لصالح آل النبي (الهاشميين)، وبهذا التعبير يُقصَد في المقام الأوَّل نسلُ علي، كما نُشِرَتْ

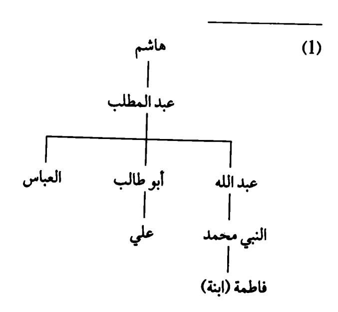
(1) اضطر، في ذلك الوقت، حتى أنبل المتحولين من غير العرب، بعد قبوله للإسلام، إلى ربط نفسه كـ «تابعٍ» لبعض القبائل العربيَّة، ومن ثم أصبح يحقّ له أن يضيفَ إلى اسمه اسماً آخر، ممَّا جعله ينتمي إلى هذه القبيلة.

بنجاح شعاراتٌ أخرى وأحاديث زائفة لمحمَّد، وأخذ العباسيون مكانَ العلويين على نحوٍ تدريجيّ وخفي، إذ كانوا بلا شك أحفاد هاشم، ونظراً لأنَّهم قُدِّموا على أنَّهم غيرُ مهمين لانحدار نسبهم من محمَّد في سلالة الإناث، يمكنهم الادعاء بأنَّهم على قرابة وثيقة بالنبيّ مثلهم مثل الآخرين تقريباً[1].

تتمثَّل النقطةُ الأساسيَّةُ في أنَّ الأتباعَ المجهزين للقضيَّة أصبحوا مرتبطين تماماً بأشخاص المبعوثين، بحيث يتمكن المبعوثون في نهاية المطاف من توجيه أتباعهم حسب ما يشاؤون، ولضمان وجود أتباع، لم يتردّدوا في دعم جميع أنواع الآراء المرفوضة (جزئيّاً، بسبب الاختلاط بين الدين القديم والجديد) غير المتوافقة مع أحكام الإسلام الأساسيَّة، ولا نعلم سوى القليل عن تفاصيل مسار التحريض، لكنَّه بكلّ تأكيد كان نشطاً للغاية، وكان لدى المبعوثين تنظيمٌ منتظم، وكان يُوجَدُ تواصلٌ

---

(1)



متكرّرٌ بين خراسان والمراكز التي انطلقت الشرارة منها، الكوفة مقرّ العضو الأكثر امتيازاً، والحميمة موطن العباسيين.

أبو مسلم الخُراساني:

أتاحتْ رحلاتُ الحجّ السنويَّة فرصاً استثنائيَّةً للاجتماع من دون إثارةٍ للشبهات، ولعلَّ العديد من المشاورات ذات الأهميَّة أُجرِيتْ في مكَّة نفسها، وكانتْ العمليَّاتُ مستمرَّةً على هذا النحو لمدَّة طويلة، حين اكتشفَ زعيمُ العباسيين ـ سواء محمَّد الذي توفي عام 743 أم ابنه إبراهيم، من غير المؤكد تماماً أيَّهما ـ الرجلَ الذي كان مقدراً له إيصال الحركة إلى قضيَّة ناجحة؛ كان ذلك الرجل أبا مسلم الخراساني، وهو رجلٌ حرٌّ مجهول موطنه ونسبه، لكنَّه لم يكنْ ذو أصل عربيّ على أيّ حال، اتَّحد هذا العبدُ السابقُ بمكرِ المحرّضِ وانعدام الضمير التام في اختيار وسائله والقوَّة والرؤية الواضحة لقائدٍ ورجلِ دولة، وحتى لملك، وفي غضون سنوات قليلة، كان السبب في رفع راية العباسيين السوداء علانية (أوائل الصيف، 747).

خطَّطَ أبو مسلم بطريقة غادرة، لكن بارعة، لزيادة تأجيج الكراهية المتبادلة للأحزاب العربيَّة التي كانتْ في حالةِ حربٍ علنيَّة مع بعضها البعض، مع أنَّ نصر بن سيار، والي خراسان، لم يكنْ الوحيدُ الذي رأى أنَّه لا شيء كان على المحك سوى سيادة العرب، وحتى حياتهم ذاتها، كما يُقال إنَّ إبراهيم أصدر أوامره لأبي مسلم بأنَّه ينبغي، بقدر الإمكان،

أَلَّا يُتْرَكَ أيُّ عربيٍّ على قيد الحياة في خراسان، وسرعان ما اضطرَّ نصر الشجاع إلى ترك البلاد، وتوفي بعد ذلك مباشرة (تشرين الثاني عام 748).

قاتل الخراسانيون بخطا ثابتة، وكانتْ القيادةُ الرئيسةُ في يد أبي مسلم، برغم بقائه في خراسان، إذ لم يكنْ الفرس من وضعوا أنفسهم تحت قيادة الرجل الحرّ فحسب، بل القادة العرب أيضاً، وهو أمر لم يُسمَعْ به لأجل كبرياء العرب، الجدير بالذكر أيضاً أنَّ عربَ خراسان كان لديهم بلا شك دماء فارسيَّة قويَّة، وأنَّهم تطبعوا كثيراً بما هو فارسيّ.

لم يمضِ وقتٌ طويلٌ حتى استولى شخص آخر من الهاشميين على جزء كبير من جنوب بلاد فارس، إنَّه عبد الله بن معاوية، حفيد جعفر شقيق علي، وقد تمتع بدعم العباسيين، لكن قادة مروان الثاني الأمويّ تغلَّبوا على هذا الشخص غير المستحق تماماً (على ما يبدو كان كذلك)، وتوجَّه أثناء هروبه إلى أبي مسلم، لقد انتهى دوره في زجّ الإمبراطوريَّة في اضطراب أكثر وحشيَّة، ووجَّه انتباهَ الناسِ إلى آلِ النبيّ، والآن تبيَّن بوصفه منافساً أنَّه غيرُ ملائم، لذلك حبسه أبو مسلم في البداية، ثم قتله.

احتلَّتْ جيوشُ العباسيين بابل، أهمّ مقاطعاتِ الإمبراطوريَّة، وقعتْ معركةٌ كبيرةٌ مجدَّداً بالقرب من الميدان حيث حقَّق الإسكندر نصره النهائيّ على داريوس (منتصف كانون الثاني عام 750)، كان الرجالُ المنتمون إلى القبائل اليمنيَّة، الذين شكلوا الغالبيَّة العظمى من الجيوش الأمويَّة، غيرَ راغبين في التضحية بحياتهم من أجل مروان، إذ لم

يتبنَّ موقفاً إيجابيّاً اتجاههم، وبالتالي خسرتْ المعركة، زد على ذلك، نشأت الآن صراعات داخليّة في سورية ومصر، ممّا سهَّلَ عملَ الجيوشِ العباسيَّة، واضطرَّ مروان، المقاتل المتمرس، إلى الفرار من مكان إلى آخر، وسرعان ما قُتِلَ بعد ذلك، شبه مهجور، في قرية بوصير،[1] في مصر الوسطى (آب 750).

لم يعدْ إبراهيم قائداً للعباسيين الآن؛ فقد حبسه مروان حين اكتشف تواطؤه مع أبي مسلم، وقبل انتصار حزبه بمدة وجيزة، مات أو قُتِلَ في الأسر، هرب إخوته إلى الكوفة، وبقوا متوارين عن الأنظار هناك، الآن بعد احتلال الخراسانيين للمدينة مباشرة، وقبل الضربة الأخيرة ضدّ مروان، أُعلِن أبو العبّاس، رأس أهل البيت الآن، خليفةً (تشرين الثاني أو كانون الأول عام 749)، وسمَّى نفسه في خطبته الافتتاحيّة في المسجد الرئيس بـ«السَّفَّاح»؛ أي «سفّاك الدماء»؛ أمَّا بالنسبة إلى هذا الاسم الرهيب، الذي أصبح منذ ذلك الحين لقبه الدائم، فقد حقّق عدالة كبيرة، إذ قضى على الأمويين جميعهم من دون رحمة، ورُفع الشعار: «الثأر للهاشميين الذين قُتِلوا على يد الأمويين»، يُحتمل ـ بالتأكيد ـ أن يكونَ للعباسيين، الذين كانوا أنفسهم عرباً، مشاعرُ عربيَّة في هذا الشأن، ويطلبوا الثأر لدماء أقاربهم على هذا النحو، إلا أنَّ الدوافعَ الفعليَّة تختلف عن تلك الدوافع؛ إذ كان هدفهم إثارة الغوغاء

---

(1) ربَّما على الضفة اليمنى لنهر النيل، مقابل قرية الأشمونين.

ضدّ الأمويين، بوصفهم رجالاً آثمين ويستحقون الموت، وجعل بيتهم بأكمله آمناً تماماً، لم يدّخرْ أيّ عنف أو غدر تحقيقاً لهذه الغاية، وحتى أفراد الأسرة الذين فرّوا طلباً للرحمة إلى الغزاة، واستقبلوهم، بل أكثر من ذلك، فحتى أولئك الذين مُنِحوا وعداً رسميَّاً بعدم إلحاق الأذى بهم، قُتلوا؛ وكان العباسيون، الخليفة ذاته، وكذلك أعمامه، ولا سيَّما عبد الله، الذين قادوا مطاردة مروان المهزوم، يفخرون شخصيَّاً بقتلِ خصومهم، مع ذلك، لم يكن لدى عبد الله سوى وقت قصير قبل أن يختبرَ فعلَ الرأفةِ حين وقع في قبضة قائد مروان، أثناء مشاركته في تمرّد الجعفريين، وبصرف النظر عن ضراوة المذبحة، تمكَّنَ قلَّة من أفراد هذه الأسرة الأمويَّة الكثيرة العدد من الفرار، اختبأ بعضهم، وجرى تجاهلهم أو مسامحتهم بين الحين والآخر، كما هرب آخرون إلى أقصى الغرب، حيث لم تمتدْ سلطةُ الخليفة، لم يكنْ الدمُ الأمويّ هو الذي أريق بدون قيود عند تأسيس الحكم العباسيّ فحسب، سواءً لإثارة الرعب بين رعاياه، أو لأنَّ الحاكم الجديد يكاد لا يقوى على السيطرة على شهوة الذبح في صفوف جيوشه المنتصرة، لكن لم تتكيَّفْ سورية مع الأسرة الحاكمة الجديدة من دون مشاكل، أعطتْ الاضطراباتُ المختلفة الغزاةَ الكثير ليقوموا به منذ البداية، ولا سيَّما أنّه ثَبُتَ أنَّ قمعَ هؤلاء المتمردين الذين وضعوا في طليعتهم أبا محمد، حفيد أوَّل خليفتين أمويين، هو مهمَّة شاقة.

بعد مدّةٍ وجيزةٍ من وفاةِ مروان، تصالحَ آخر مناصريه الأقوياء، ابن

هبيرة، الذي استولى على بلدة واسط ذات الأهميَّة والواقعة على نهر دجلة في الجزء السفليّ، مع المنصور؛ شقيق الخليفة، بعد أن حاصره لمدة طويلة، إذ لم يَعِدْه هذان الأخوان الأميران بالحياة فحسب، بل بالاستمرار في منصبه الرفيع أيضاً، إلا أنَّ مثلَ هذه الشخصيَّة النبيلة للغاية، مع مجموعة كبيرة من الأتباع، والذي أكَّد على وضعه المستقل جداً بوصفه حاكماً لبابل، لم تكنْ مناسبةً مع الوضع الجديد للأمور.

وفقاً لذلك، أمرَ المنصور بالاتفاق مع شقيقه بإعدامه؛ إذ لم تحملْ الوعودُ الرسميَّةُ والأقسام معنى بالنسبة إلى هؤلاء الرجال، يقال إنَّ هذا حدث بناءً على نصيحة أبي مسلم، والأرجح أنَّ لأبي مسلم يداً في التخلص من أبي سلامة، «وزير الهاشميين»، الذي قاد الحركة في خراسان من بابل، وقدَّم خدمات جليلة فيما يتعلَّق بتغييرِ الأسرةِ الحاكمة، يُزعَم أنَّه ـ ربَّما بما يتفق تماماً مع أوامره الأصليَّة ـ أظهر، بعد وفاة إبراهيم، ميلاً إلى العلويين أكثر من العباسيين، على كلّ حال وقف عقبة في طريق أبي مسلم.

يبدو أنَّ السفاحَ كان حاكماً قويَّاً، ربَّما أمكنه أن ينجزَ بنفسه، لو أنَّه عاش لمدة أطول، للإمبراطوريَّة ما تُرِكَ لأتباعه لإنجازه، ظهرتْ اختلافاتٌ كبيرةٌ بين خلافةِ العباسيين وخلافة الأمويين على نحو مباشر؛ يرجع ذلك جزئيَّاً إلى الطريقة التي أُسِّستْ بها، ومن ناحية أخرى إلى طابع الحكام الشخصيّ، نُقِلَ مقرُّ الإمبراطوريَّة إلى بابل، المركز الحقيقيّ،

واستندَتْ سلطةُ الحاكم في المقام الأوَّل إلى الجيوش الفارسيَّة، التي كانت أكثر قابليَّةً للانضباط من العربيَّة، لم يَعُدْ الخليفةُ بحاجةٍ إلى أن يأخذ في الحسبان غيرة العرب القبليَّة، مع أنَّه استخدمها بين حين وآخر لتحقيق غاياته الخاصَّة، ثم يمكن أن يستبدَّ أكثر من أسلافه، إذ شكلتْ أراضي الخلافة الآن وحدة سياسيَّة أكثر بكثير من ذي قبل، باختصار، أُسِّسَتْ على الأرض القديمة للإمبراطوريَّات الآسيويَّة العظيمة إمبراطوريَّاتٌ أخرى مجدداً، كانتْ في معظمها نصف عربيَّة في طابعها فحسب، وما تبقى فارسيّ.

احتلَّ المنصور، حتى في حياة السفاح، مكانةً بارزةً بوصفه مستشاراً مؤثراً، وحاكماً لمقاطعات كبيرة، لكن من المستبعد أن يسمحَ الخليفةُ بأن يرأسه أخوه على نحو كامل.

رغبَ أبو مسلم في عام 754، الذي كان شعبه مخلصاً له على نحو أعمى، وكان له نفوذ مثل نفوذ أمير في خراسان، أن يكونَ قائداً للحج؛ أي أن يمثلَ الخليفة نفسه أمام العالم الإسلاميّ أجمع، لكن السفاح سارع إلى تحريض المنصور على السعي إلى هذه المكانة لنفسه، وبذلك كان عليه أن يعربَ عن أسفه لأنَّ المنصبَ قد مُنِحَ مسبقاً، وأنَّ أبا مسلم لم يكنْ بإمكانه الذهاب إلا بوصفه مرافقاً للمنصور.

يبدو أنَّ الخلافَ نشأ أثناء الحج بين حَدِيث النعمة الذي أَسَّسَ الإمبراطوريَّة الجديدة وشقيق الخليفة الذي لا يقلّ وعياً بذاته، وعلى

أيّ حال فإنَّ أبا مسلم لم يبالغْ في أداء دور الخادم المخلص، وقد انتصرَ على البدو من خلال توقد ذهنه لدرجة إعلانهم أنَّ وصف هذا الرجل بأنَّه عدوّ للعرب هو محض افتراء، وكان الاثنان في طريق عودتهما حين وصلت الأخبار بأنّ السفاح قد مات (يوم الأحد، 9 حزيران، عام 754)[1] في الأنبار (شمال الكوفة)، وأنّ المنصور قد نُصِّبَ خليفةً في اليوم ذاته.

اضطرابات في عرش الإمبراطوريَّة:

كان أبو جعفر عبد الله المنصور في ذلك الوقت رجلاً تجاوز عمره الأربعين، يتبيَّن لنا من مظهره الخارجيّ أنَّه طويلٌ ونحيف، ذو وجه بيضاويّ، وشعر خفيف، ولحية رقيقة، وبشرة سمراء، وقد ظهرتْ ماهيَّةُ شخصيّته الداخليَّة من خلال أفعاله، يقال إنَّ والدته، الأمَة البربريَّة سلامة، قد حلمتْ أثناء حملها بأنَّها أنجبتْ أسداً، وجاءت الأسود الأخرى من أنحاء العالم جميعها لمبايعته؛[2] أسد مزَّق كلّ من كان في متناول يده إلى أشلاء، ما لم يعترفوا به على أنَّه سيدهم.

بلغَ المنصورُ منطقةَ الفرات بصعوبة حين علم أنَّ لديه منافساً خطيراً

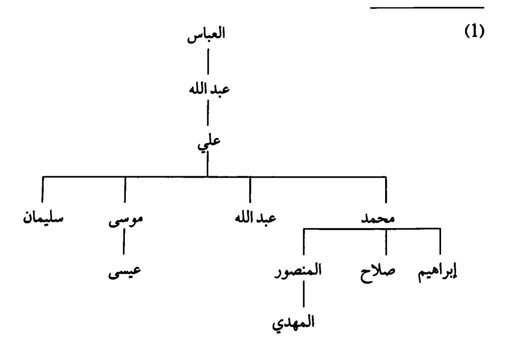
(1) وفقاً لآخرين، يوم السبت الواقع في 8 حزيران.

(2) قارن حلم والدة بريكليس، هيرودس، السادس، 131.

للغاية؛ إذ ادَّعى عمه عبد الله،[1] الذي كان متمركزاً حينئذٍ في أقصى شمال سورية استعداداً للزحف ضدّ البيزنطيين، الأحقيَّة في العرش، لعلَّ ادعاءاته لم تكنْ واهيةً إلى حدّ ما؛ لأنَّه غير مؤكّد تماماً مثل ما أُكّد عادة أنّ السفاحَ قد رشَّحَ المنصور خلفاً له، من المؤسف حقاً أنَّ الأسرةَ الحاكمةَ لم تتأسسْ قبل أن تمزّقها الخلافات حول الخلافة، وبما أنَّ أبا مسلم كان مع الخراسانيين الذين احتجزهم المنصور، فقد أُجبِرَ عبد الله على الاعتماد على الجيوش العربيَّة في سورية وبلاد ما بين النهرين، لأنَّه أمر بذبح آلافِ الخراسانيين ممن كانوا معه، ذهب حميد، ابن القائد العربيّ قحطبة، الذي قاد الجيوش الخراسانيَّة من نصر إلى نصر قبل خمس سنوات، من عبد الله إلى المنصور على نحو مفاجئ، وقدَّم له خدمةً بارزةً في هذه الحرب وفي حروب لاحقة عديدة، أنهى أبو مسلم الحربَ التي استمرَّتْ بضعة أشهر

---

(1)



في بلاد ما بين النهرين من خلال انتصارٍ تحقّق في 26 (أو 27) تشرين الثاني عام 754، فرَّ عبد الله إلى شقيقه سليمان، حاكم المنصور في البصرة (بالقرب من مصب نهر دجلة)، وظلَّ مختبئاً هناك لبعض الوقت.

وهكذا لم يؤسّسْ أبو مسلم الأسرةَ العباسيَّةَ فحسب، بل أنقذَ العرشَ للمنصور، فالرجل الذي فعلَ الكثيرَ يمكنه فعلُ المزيد، وهو يمثّلُ خطراً على سيّده، عقدَ المنصورُ العزمَ على التخلص من أبي مسلم، وهي خطة قيل إنّها تبدَّت للسفاح أيضاً، سُرِدَتْ كيفيَّةُ حدوثِ الخلافِ في البداية بطرق عدَّة، يحتمل أن يكونَ الخليفةُ قد رشّح أبا مسلم ليكونَ حاكماً على محافظات سورية ومصر الغربيَّة لإبقائه بعيداً عن خراسان حيث تترسّخ جذور قوته، لكنَّه لم يوافقْ على ذلك، إذ لحِظ، على أيّ حال، أنَّ المنصورَ رَغِب في حرمانه من النفوذ، وقرَّر وفقاً لذلك العودة إلى خراسان من دون الرجوع إلى المنصور، كان واثقاً تماماً من جنوده، حتى في حملة ضدّ الخليفة، في هذه المرحلة، جرتْ مراسلاتٌ بين الاثنين، عانى أبو مسلم نفسه في النهاية من انخداعه بضمانات المنصور المؤكَّدة (مع مزيج بسيط من التهديدات)، وجاء بصحبة القليل من الموالين إلى الخليفة في «مدينة الرومان»، وهو مكانٌ فاسدٌ كان ينتمي إلى مجموعة سلوقيَّة؛ قطسيفون (المدائن) من المدن الملكيَّة الفارسيَّة، استقبله المنصورُ بلطف، ولكن بعد التأكد منه، أمرَ بقتله أمام عينيه، وإلقاء جسده في نهر دجلة (شباط عام 755).

إنَّ إبعادَ شخصيَّةٍ قويَّة ـ سمعنا أنَّ أتباعَه سيضحون بحياتهم وأرواحهم لأجله لكن بصعوبة استطاعَ الخليفةُ الاعتمادَ على إخلاصه ـ كان ضرورة سياسيَّة، يُقَال إنَّ أحدَ أقاربِ المنصور ذكر له آيةً من القرآن ضدّ أبي مسلم قيل فيها: {لو كان فيهما آلهةٌ إلا الله لفسدتا فسبحان الله ربّ العرش عمّا يصفون} (سورة الأنبياء، الآية 22).

لا يمكنُ لأميرٍ مثل المنصور أن يتسامحَ مع أيّ منافسٍ في المملكة، كما لا يمكنُ التقدّم بأيّ ادّعاء عظيم بشأن رحمتنا لأبي مسلم، الذي أحجم عن أيّ مصدر من مصادر العنف أو الغدر، سواء ضدّ الأعداء أو ضدّ الأصدقاء غير المناسبين، والذي قيل عنه (بمبالغة كبيرة بدون شك)، إنَّه أمر في مقتل ما يصل إلى 600 ألف سجين، أظهر المنصور فطنة مثيرة للإعجاب حين تجاوز الأكثر دهاء مكراً، لكنَّ سلوكَه كان مقيتاً وغنيّاً عن الذكر.

لقد خلا القتلُ على أيّ حال من الخطر على مرتكبه، فقد مُنِعَ الجنودُ الذين أحضرهم أبو مسلم معه من التسبب بأيّ اضطراب، يُعزَى ذلك جزئيّاً إلى فزعهم من الأمر الواقع، ومن ناحية أخرى إلى توزيع المال السخي، لكن سُمِعَتْ تمتماتٌ في خراسان، هناك كان للقتيل آلافٌ ممن تعلَّقوا به بارتباط دينيّ، في الواقع، يُوجَدُ الكثير ممن لم يصدّقوا موته، وتوقعوا أن يعود مرَّة أخرى على أنَّه مسيح، فقد أثار فارسيٌّ اسمه «سُنباذ» في تلك السنة ثورةً كبيرةً في خراسان انتقاماً لأبي مسلم، ما قيل

عنه إنَّه كان أستاذاً للديانة الفارسيَّة القديمة غير محتمل، لعلَّه ينتمي إلى إحدى الطوائف نصف الفارسيَّة، التي لا يمكن حتماً أن تعدّها الأكثريَّة محمّديَّة، وعلى أي حال كانتْ الثورةُ حركةً شعبيَّة، تقدَّم سُنباذ بعيداً نحو ميديا، وعقب ذلك هزمه «جهور»، الذي أرسله المنصور لمواجهته، وقتل في مكان ما بالقرب من المكان حيث لاقى آخر ملوك الأسرة الأخمينيَّة (داريوس الثالث) حتفه، لقد جعل القائد المنتصر نفسه سيّداً على كنوز أبي مسلم، والآن تمرَّد بدوره، لكن سرعان ما غُلِب وقُتِل (755 أو 756)، وأصبحتْ خراسان تحت سيطرة الخليفة من جديد.

حدثتْ أيضاً اضطراباتٌ من أنواع مختلفة في اتجاهات أخرى، إذ قاتل الخوارج،[1] الذين لم يكن لديهم سبب لعدِّ حكم أقرباء النبيّ أكثر عدلاً أو أكثر توافقاً مع شرع الله من حكم الأمويين، من أجل مبادئهم في أجزاء مختلفة من الإمبراطوريَّة، برفقة قلَّة من الأتباع، لكن بشجاعة تحدَّت الموت، وهكذا، تسبّب خارجيٌّ معيّن، ملبد بن حرملة الشيباني، في بلاد ما بين النهرين، في الكثير من العناء لجيوش الخليفة، ولم يهزمْه أخيراً إلا خازم عام 756، الذي قد يكون أقدر قادة المنصور.

وضعتْ حفنةٌ من البشر الغريبين الخليفة في موقف صعب للغاية، ربّما في عام 757–758، إذ لم يؤمنْ الراوندي، الذي يُعتَقد أنَّه على صلة بأبي مسلم، بتناسخ الأرواح فحسب، بل وضع في عقولهم أيضاً أنَّ

(1) يُنظر ما ورد أعلاه.

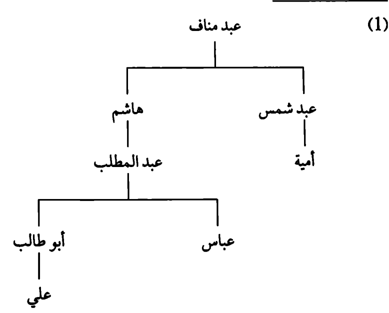
المنصور هو الله نفسه، وبناءً عليه ساروا إلى عاصمته، وتمركزوا للعبادة حول قصره.

في الواقع، لقد أدركَ المنصورُ تماماً أنَّه من الأفضل أن يطيعه الناسُ وليذهبوا إلى الجحيم نتيجةً لذلك، عوضاً عن كسب الجنة من خلال التمرد ضدّه، لكن لم يتجرَّأ أمير المؤمنين على التسامح مع هذا السلوك الذي صدر عن الراوندي، إلا إن رغب في إثارة انتفاضة عالميَّة من المسلمين جميعهم ضدّه، وعليه، أمر في سَجنِ عددٍ من المتعصبين، لكنَّهم لم يتقبلوا هذا الأمر على نحو جيد، إذ أطلقوا سراح رفاقهم، ثم اعتدوا على حياة الخليفة، الذي لم تتوفّرْ لديه سوى حراسة محدودة، لقد أظهر الخليفةُ شجاعةً كبيرةً في السيطرة عليهم، ولم يفعلْ ذلك إلا بشق الأنفس، في الصراع برز إلى الواجهة شخص كان قائداً بارزاً خاضعاً للأمويين، وبعد ذلك بقي مختبئاً، ثم اغتنمَ هذه الفرصة لكسب ودّ الخليفة، إنَّه معن ابن زائدة، ذائع الصيت لشجاعته، وتسامحه على نحو أكبر، لكنَّه صارم وعديم الرحمة مع أعدائه في الوقت ذاته، لقد ضم المنصور، الذي كان مناسباً تماماً لمزج العرب العاربة مع قادته الخراسانيين ذوي الأصول العربيَّة والفارسيَّة المختلطة، المحارب طواعية إلى جلالته، وأرسله بعد ذلك بمدَّة وجيزة إلى اليمن، حيث أخضع، خلال مدّة حكمه التي دامتْ تسع سنوات، المعارضين جميعهم بإراقة دماء غزيرة، من ثم أرسله إلى جنوب شرق بلاد فارس، حيث فاجأه الخوارج وقتلوه.

أطيحَ ببني أمية فيما مضى، ورأى العلويون أنَّهم لم يكسبوا الكثير، إذ لم يشكلْ أيّ فارق بالنسبة لهم سواء أكان أبناء عمومتهم الأقرب؛ أحفاد عباس،[1] أو أقاربهم الأبعد قليلاً؛ أحفاد أمية، يمتلكون السيادة، ولم يكن اسم هاشم كافياً، وحين بحثت مسألة آل النبي (أهل البيت)، فكر كلّ واحد في ذريته الفعليّة أوّلاً؛ ارتأى هؤلاء الآن ـ ليس بدون وجه حقّ ـ أنَّ حقَّهم المكتسب بالولادة قد سُلِب.

يرجح أنَّ العباسيين، خلال المفاوضات السريَّة في مرحلة مبكرة، قد أقرّوا طوعاً في وقتٍ من الأوقات بمحمَّد بن عبد الله العلويّ بوصفه رأسَ أهلِ البيت، وخليفة المستقبل، ولا يمكننا أن نجزمَ لما كان ينبغي اختيار هذا الرجل ذاته من بين أحفاد علي الكثيرين جداً؛ إحدى الميزات التي كان يتمتع بها بلا شك، والتي سقطت في الميزان حين تم الحث على المطالبة بالشرعيَّة هي أنَّ الإناث أيضاً اللائي دخلن في سلسلة نسبه كنَّ

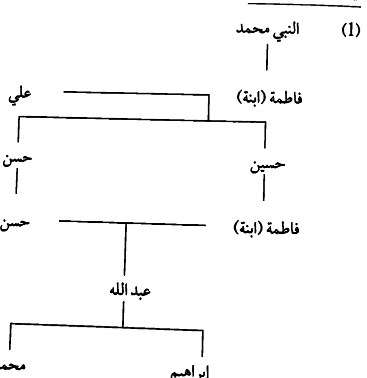
(1)



جميعهن عربيّات حرّات من أسرة محترمة، وأنَّ محمّداً الحسني كان أيضاً حفيداً للحسين من جدته، بالتالي ينحدر من النبيّ على نحو مزدوج،[1] ولعلَّ والده، الذي ربَّما قدَّم مطالب أقوى، كان متردّداً أكثر من اللازم أو قليل الطموح.

أدرك العباسيون جيداً أسبابَ وصولهم إلى العرش لئلا يكونوا غيورين جداً من المزايا الوراثيَّة لأبناء عمومهم، وقد أدلى عدَّة علويين مراراً وتكراراً برأيهم في الوضع على نحوٍ صريح، لقد خان محمَّد آنف الذكر، وشقيقه إبراهيم، أنفسهم بالامتناع عن القدوم لتقديم احترامهم للمنصور حين أدَّى شعيرة الحجّ خلال حياة أخيه، وإن اعترف المنصور في وقت ما بحقّ محمّد في الخلافة، فسيكون هذا بالنسبة له دافعاً إضافيّاً

(1)



لبذل جهد لإبقائهم تحت عهدته، غير أنَّهم لم ينتفعوا من الوعود ولا التهديدات، إذ اختبؤوا في مناطق مختلفة من المنطقة العربيَّة، ويقال إنَّهم تجولوا في الأراضي النائية، بينما أصرَّ والدهم، حين استُجوبَ بدقة، على إيضاح أنَّه ليس لديه أدنى فكرة عن مكان إقامة أبنائه، وأمرَ المنصورُ بزجه في السجن حين جاء للحجّ مرَّة ثانية إلى مكّة في نيسان عام 758، لكن حتى هذا لم ينفع، فإمَّا أنَّ حكامَ المدينة لم يستطيعوا إيجادهم وإمَّا لم يشاؤوا ذلك؛ تعاطف السكان مع العلويين بوصفهم أبناءً للنبيّ وأبناء مدينتهم، كما شعر غالبيَّة المسؤولين من دون شك أنَّ تسليمَهم إلى الهلاك جريمة، لكن رياح المري، الذي دخل ولاية المدينة في 27 كانون الأول عام 761، كان بمعزل عن أيّ ضعف، وهدَّدَ السكانَ بالمصير ذاته الذي ابتلاهم به قريبه مسلم بن عقبة، قبل ثمانية وستين عاماً، لتمردهم على السلطة،[1] لقد أمر بسجن رجال القبائل الأقرب لعائلة محمَّد، والعديد من أتباعه، وكذلك عدد من بدو جهينة، الذين يفترض أنَّه بين جبالهم، إلى الغرب من المدينة،[2] كان المدعي مختبئاً، وحين زار المنصور المدينة في ختام رحلة حجّ أخرى (آذار عام 762)، أخذ هؤلاء العلويين الأسرى، بما في ذلك والد الأخوين، والعديد من الأشخاص ذوي الاعتبار، ونقلهم معه مقيدين بالسلاسل إلى بابل، كان من بين هؤلاء المنفيين أخ عبدالله غير الشقيق، الذي زوّج سرّاً، وفي انتهاك لقسمه، ابنته من ابن أخيه، المدعي، ويقال

(1) يُنظر ما ورد أعلاه.

(2) ما تزال قبيلة «جهينة» تسكن هناك حتى يومنا هذا.

أيضاً إنَّه بدا عظيماً بسبب تميزه الشخصيّ بوصفه حفيدَ الخليفةِ عثمان، سقط ابن محمَّد في يد حاكم مصر، وأُرسِلَ إلى الخليفة، يمكننا أن نصدّقَ بسهولة ما نقرأ، فلم تكنْ معاملةُ هؤلاء الرهائن متساهلة بأيّ حال من الأحوال؛[1] إذ أُعدِمَ العديدُ منهم، ومات الكثيرون في السجن، لكن أبرز التصوّرُ الشعبيُّ أو الكراهيةُ الشخصيَّةُ الصورةَ بوضوح، وتروي القصة أنَّ الخليفةَ احتفظ بجثثِ العلويين المقتولين جميعهم في غرفة كبيرة فلم يسمح لأحد بالدخول إليها إلا هو، وعَلّق في أذن كلّ واحد ملصقاً كُتِبَ عليه اسمه ونسبه بدقة، وغامر المهدي ابن المنصور باستخدام المفتاح بعد وفاة والده، وأمر، مذعوراً من اكتشافه، بدفنهم جميعاً.

ثورةُ العلويون:

يبدو أنَّ البحثَ الدؤوب الذي قام به رياح قد أدَّى أخيراً إلى قيام محمَّد بمحاولة ثورة مبكرة؛ اندلعتْ في المدينة نهاية عام 762، أُعلن محمَّد خليفةً، وأُطلق سراح الأسرى، وزُجَّ الحاكم وأتباع المنصور الآخرون في السجن، أصدرَ شيخُ الإسلامِ الشهير مالك بن أنس قرارَه بأنَّ قَسَم الولاء للعباسيين، الذي انتُزع عنوةً، ليس واجباً ملزماً، وهذه سمة من سمات

(1) وأثناء الرحلة، ورد أنَّ عبد الله نادى المنصور: «والله يا أبا جعفر! ما هكذا صنعنا بأسراكم يوم بدر!» كانتْ هذه إشارة مريرة إلى حقيقة أنَّ سلفَ عبد الله عليا كان نصيراً للإسلام في معركة النبيّ الأولى، في حين أنَّ سلف العباسيين، الذي تمنى الآن أن يُنظَر إليه على أنَّه يمثّل حقوقَ آل بيت النبيّ، كان يقف إلى جانب الوثنيين في تلك المرحلة، وقد أُسِر مع العديد من رفاقه، لكنَّهم عوملوا برحمة.

أخلاقيَّات الإسلام والنظرة إلى حكم العباسيين الذين كانوا، بصحيح العبارة، أوصياء على الدين والشريعة المقدَّسة،[1] لقد تحوَّلَ الجميعُ إلى صف محمَّد بناءً على فتوى مالك، حتى أنَّ أحفادَ أبي بكر ورجالاً آخرين من قريش، الذين تميَّزوا في وقت سابقٍ بتأسيس إمبراطوريَّة الإسلام، انضموا إليه في معظمهم، ومثلهم الشاعر أبو عدي العَبلي الذي ينتمي إلى فرع جانبيّ من فروع بني أميَّة، ومع ذلك، يبدو أنَّ هؤلاء الأفراد لم يرثوا إلا القليل من قدرات أسلافهم السياسيَّة والحربيَّة، لقد رأى العديدُ من الرجال ذوي الرؤى الواضحة منذ البداية أنَّ احتماليَّةَ نجاح المشروع ضئيلة، وحين نقلَ رسولٌ متطوّع، في مدة وجيزةٍ جداً مدتها تسعة أيام، أخبارَ التمرّد إلى المنصور في الكوفة، لم يكن مستاءً على الإطلاق من توضيح هذا الموقف، وقال: «الآن، أخيراً، قد أخرجت الثعلب من جحره!» كانتْ المدينةُ من بين الأماكن كلّها الأقلّ ملاءمة لتأسيس دولة مناهضة للخلافة، ولهذا السبب، من بين أسباب أخرى، اعتمدتْ المنطقةُ بأكملها على الواردات من مصر، التي قُطِع الإمدادُ منها الآن دفعة واحدة، أرسل منصور ابن عمه، عيسى بن موسى، مع جيش صغير لكنَّه متمرّس باتجاه المدينة، أثبت محمَّد أنَّه لم يكن كُفُؤاً لمهمته أكثر ممَّا كان المدَّعون العلويون الآخرون، فعوضاً عن أخذ مشورة أصحاب الخبرة في الحرب،

(1) لم تكنْ الرواياتُ التاريخيَّة، على نحو عام، ضدّ العباسيين في الواقع، لكنَّها في الوقت نفسه كانت مؤيدة جداً للعلويين، يتضح هذا من خلال التفاصيل الكبيرة التي تسجل حركات التمرد العلويَّة جميعها.

وتولي الهجوم، بقي داخل مدينة النبي، إذ ظن أنَّ حرمتها هي أفضل دفاع له: ذات مرة، ظهر للنبي في منام على هيئة درع، لقد رمم خندق النبيّ عن طريق التحصين، العمل الذي أثار دهشة العرب المحتشدين ضدّ محمّد - إنَّهم رجال لا يمتلكون خبرة في الحرب على نطاق واسع، أو أيّ نوع من العمل الموحَّد الشاق في الواقع - إلا أنَّ الأمرَ كان مجرَّدَ مسرحيَّة أطفال لمحاربي خراسان القدامى، إذ كسب عيسى، من خلال الرسائل، تأييدَ العديد من الشخصيَّات ذات الأهميَّة من محمَّد، تلاشى الجزء الأكبر من أتباعه بهدوء مع اقتراب العدوّ، توقف عيسى لمدّة ثلاثة أيام قبل المدينة، للحصول، إن أمكن، على تسوية سلميَّة من خلال التفاوض، ثم بدأتْ العمليَّات، سُدَّ الخندق ببعض أبواب المنازل، ورفعتْ امرأة من بني عباس سرَّاً قطعة قماش سوداء كبيرة على أعلى مئذنة، وعليه، سارعَ سكان المدينة المتدينون جميعهم مباشرة إلى استنتاجٍ مفاده أنَّ الخراسانيين قد دخلوا المدينة من الجهة الخلفيَّة، وهناك ثبَّتوا رايةَ العباسيين السوداء، قلَّة فقط، بمن فيهم جماعة من بدو قبيلة جهينة، وقفوا إلى جانب محمَّد، سقط محمَّد، وهو رجل وسيم طويل القامة، بعد صراع بطوليّ في وقت متأخر من عصر يوم الاثنين 6 كانون الأول عام 762، لقد أمرَ بإعدام الأسير رياح قبل ذلك مباشرة، وهكذا أُضيف شهيد آخر إلى قائمة «شهداء» العلويين، الذين ورثوا عن أسلافهم البسالة والشجاعة، لكنَّهم عجزوا أيضاً عن الزعامة والقيادة العليا، ولقَّب أنصار البيت محمَّداً بـ «النفس الزكية».

أظهرَ عيسى، متّبعاً الأوامر، رأفةً نسبيَّة، إذ كان ممَّا له أهميَّة بالنسبة إلى أحفاد عباس عدم انتهاك حرمة مدينة النبيّ التي يمكن إرجاع حقوقهم إليها إلى حدّ كبير، في الواقع، أُعدِمَ بعض المشاركين البارزين في التمرّد، أو سُجنوا أو تعرّضوا إلى عقاب بدنيّ شديد، لقد صودرت ممتلكات ذلك الفرع من بني علي الذي انتسب إليه مدَّعي العرش، وأُحضر رأسه إلى الخليفة وفقاً للعرف السائد آنذاك، الذي أرسله عن طريق رسول طاف به المقاطعات بوصفه أنموذجاً سيئاً، وصل إلى مصر في ربيع عام 763، في الوقت المناسب لمنع بروز الحزب العلويّ هناك.

مع أنَّ الأمورَ في المدينةِ لم تحسمْ بعد، علمَ الخليفةُ أنَّ إبراهيم قد هبَّ من أجل شقيقه محمَّد في البصرة (الاثنين 22 تشرين الثاني عام 762)، وقد علمَ المنصورُ مسبقاً أنَّ إبراهيم كان متوارياً هناك، واتخذَ بعضَ الإجراءاتِ الاحترازيَّة وفقاً لذلك، ولكن مع ذلك يبدو أنَّه فُوجِئ جداً بهذا التمرّد الجديد، لم تكنْ البصرةُ مجرَّدَ مدينةٍ تجاريَّةٍ ثريَّة، بل اتسمتْ أيضاً، من وجهة نظر عسكريَّة، بأهميَّة مختلفة جداً عن المدينة؛ فقد أتاحت فرصاً كبيرة لرجل صاحبَ مشروع، وعلى هذا الأساس، يمكن حصار نهري دجلة والفرات، والسيطرة على المقاطعات البحريَّة إلى الشرق بسهولة نسبيَّة، ولم يكنْ ذلك كلّ شيء، فقد كانتْ المدينةُ شديدةَ الأهميَّة، في المنطقة المتاخمة التي اتخذها المنصور مقرّاً لإقامته، الكوفة المضطربة، علويَّةً تماماً في تعاطفها، وإن ظهر في المنطقة علويّ برفقة جيش، فمن المتوقع اندلاع حربٍ داخلها في أيّ لحظة، زد على ذلك، كانت المقاطعة

الوسطى بأكملها في حالة من الهياج، لكن لم يملكْ المنصور في الوقت الحاليّ سوى عدد قليل جداً من الجنود الموجودين في خدمته، اعترف بعد ذلك أنَّه كان خطأً فادحاً أن يترك نفسه أعزل تماماً، وأوضح أنَّه سيحتفظ في المستقبل بما لا يقلّ عن 30000 رجل بجانبه على الدوام، إلا أنَّه استطاع ترتيبهم بحيث يبالغ الكوفيون في تقدير عدد قواته على نحوٍ كبير، إضافة إلى ذلك، كان الكوفيون أكثر بطولةً في الأقوال من الأفعال دائماً، لكن ما زال المنصور عاجزاً عن شن الهجوم على إبراهيم، لكنَّه أُجبر على تحمله، إذ وقع في يديه كنز محافظة البصرة الغنيَّة، ليصبح سيداً على شوشان وبارس أيضاً، كما انضمت واسط إلى جيوش إبراهيم، قابله في المنطقة المتاخمة لهذه المدينة من الولاة القادة للمنصور، وهنا وقف الجيشان في مواجهة بعضهما البعض حتى انتهى الصراع بأكمله.

عدَّ إبراهيم نفسه ملكاً، وقضى وقته مع زوجة تزوجها للتو، ومن ناحية أخرى، لم ينظرْ المنصورُ إلى وجه امرأةٍ مطلقاً حتى انتهى الصراع، إذ يشيد معاصرٌ، بكلمات بليغةٍ، بالشجاعة والتصميم اللذين حافظ عليهما في موقفه الحرج، لقد تجنبَ إبراهيم المشورة لحث الكوفة على التمرّد لأنَّ هذه الخطوة ستسبب الكثير من الضرر للأطفال والنساء وغيرهم من غير المقاتلين، ومن المنطلق ذاته، نهى عن ملاحقة الهاربين وما إلى ذلك، كلّ هذا يبدو جيداً للغاية، لكنَّه في غير مكانه عند شخص يقوم، لمصلحته الخاصَّة، بتمرد لا بدَّ أنَّه يقتضي، تحت أيّ ظرف من الظروف، إراقة دماء كثيرة، ولا يمكنه تحقيق النجاح في نهاية المطاف إلا بحشد كلّ طاقة، إذ

يوجد في هذا اللين ضعفٌ أكثر من الإنسانيَّة، وقد قال له أحدهم: «أنت تطلب السيادة، لكنَّك لا تجرؤ على القتل!» (لا يمكن أن تصنعَ عجة بدون كسر بعض البيض).

بعد منتصف شهر كانون الأوَّل من عام 762 بمدَّة وجيزة، تلقى إبراهيم خبراً ساحقاً بوفاة شقيقه، ومع ذلك، إن تقدَّم الآن مباشرة، لكانتْ لديه القدرةُ على وضع المنصور في ضائقة كبيرة، ولكن حين زحف نحو الكوفة، في نهاية المطاف، مع 10000 رجل تقريباً، أي سدس أو عُشر قوته نظريَّاً، كان عيسى قد وصل على رأس جيش متفوق، لقد أمر الخليفة بإرسال جيوش من المدية ضد شوشان، التي سرعان ما استولتْ على العاصمة الأهواز، في باخمرى، على بعد ست عشرة ساعة فقط جنوبَ الكوفة، واجه جيش إبراهيم، الذي اتخذ لقب الخليفة الآن، حشد عيسى المتقدّم (الاثنين، 14 شباط، عام 763)، رُدَّت طليعةُ جيشِ المنصور على أعقابها، لكن عيسى أصرَّ على موقفه، وسرعان ما احتشد الهاربون، هجم أبناء عموم المنصور؛ أبناء سليمان، على إبراهيم من الخلف، لقد سقط بعد معركة شرسة، إذ أصابه سهمٌ بجروحٍ مميتة، كما أمر الخليفة بعرض رأسه علناً، لكنَّه لم يتحملْ أن يتعاملَ أحدُ المتفرجين مع الموتى بازدراء، فقد عاقب بقسوة مرعبة شخصاً فظاً بصق على رأس إبراهيم في حضوره.

يبدو أنَّ انتصارَ إبراهيم قد عُوِّل عليه إلى حدّ كبير، إذ أرسلَ له الشاعرُ الكفيف ذائع الصيت بشار، الذي لم يكنْ طائفيَّاً، بل مفكراً حرَّاً

مستنيراً، قصيدة نال المديح فيها، وتعرّض المنصور لهجوم عنيف، وبعد المعركة غيّر القصيدةَ لدرجة أنّه استطاع تقديمها بوصفها إنتاجاً سابقاً موجّهاً ضدّ أبي مسلم.

كان موتُ إبراهيم مصدرَ ارتياحٍ أكبر للمنصور من موت محمَّد، إذ يمكنه الآن أن يثقَ ثقة تامةً بأنَّه لا يمكن لأيّ مدعٍ علويّ أن يشكلَ خطراً عليه من الآن فصاعداً، في الحقيقة، لقد أخضعَ أفراد عائلة ذويه (إبراهيم) جميعهم للمراقبة على نحوٍ صارمٍ، لكنَّه أبدى استعداداً خاصاً لاستقبال أيّ فرد من أفراد عائلته في خدمته يظن أنَّه يمكن الوثوق به، لعلَّ هذا الشعورَ العربيَّ القديم تجاه الروابط الأسريَّة ما زال يشغل جزءاً مهمّاً، ومهما كانتْ تلك الخلافات، فقد ولَّدت تأثيراً جيداً، إذ أظهرتْ للرعايا أنَّ الفروعَ الرئيسةَ للهاشميين ما زالتْ متمسكةً ببعضها البعض على حدّ سواء.

أعقبَ هذه الصراعات في المدينة هدنة قصيرة، تصرّف الجنود الفارسيون بعنف تجاه السكان المسالمين، واشتكى الناس إلى السلطة العليا، لكنَّهم لم يجدوا أيَّ تجاوب، ثم بدأتْ المقاومة النشطة؛ إذ قتل جزارو البلدة (السود الأحرار على ما يبدو) جنديّاً، وتطوَّر الأمرُ بسبب هذا إلى اشتباكٍ عام.

اجتمعَ الزنوج، الذين كان عددهم كبيراً، من العبيد والمحررين، وقتلوا جزءاً من الحامية العسكريَّة القليلة العدد، وهرب الحاكم، حتى أنَّهم استولوا على المخازن التي خُصّصتْ للجيوش، ارتعدتْ الطبقاتُ

العليا أمام غضب المنصور، يشار إلى أنَّ اثنين من الذين بذلوا جهداً خاصّاً من أجل استعادة النظام كانا فرداً من بني أميَّة وموظفاً سُجِن لمشاركته في ثورة محمَّد، وجرى الإصرارُ بشدَّة على ولاء السكان تجاه السيادة، أُعيدتْ المتاجرُ التي نُهِبَتْ أو أُصلِحَت، سمح السودُ لأنفسهم أن تقنعهم اعتراضاتُ أهمّ وجهاء المواطنين وعادوا إلى ديارهم، أصبحَ يُنظَر إلى الاشتباك الآن على أنَّه مجرَّدُ نوبةِ غضبٍ مؤقتة، وليس ثورةً اجتماعيَّة، عادَ الحاكمُ بدعوة جادة من الوجهاء، قُطعتْ أيدي أربعة من زعماء الثورة عقاب اللصوص، ومات المُفسد الرئيس في السجن.

بغداد عاصمة المنصور:

قاطعَ تمرّدُ العلويين المنصورَ في مشروعه العظيم؛ بناء بغداد، ومع سقوط الأمويين، أصبح أمراً بدهيّاً أن يكونَ مقرُّ حكام الإمبراطوريَّة الهائلة، التي امتدَّت ممَّا يُعرف الآن بتركستان الروسيَّة والسند إلى عدن والجزائر وشرق آسيا الصغرى،[1] في بابل، لكن لم يكنْ لديهم أيّ عاصمة محدَّدة حتى الآن، عاشَ المنصور عمراً طويلاً في الهاشميَّة، التي أسَّسها سلفه في المنطقة المتاخمة للكوفة، إلا أنَّ الكوفيين لم يكونوا جيراناً مرغوبين، لأنَّهم ارتبطوا قليلاً بالعباسيين، لقد وعظهم المنصور بعد وفاة

(1) بالنسبة إلى المنطقة، كانتْ إمبراطوريَّة المنصور أعظم بكثير من إمبراطوريَّة روما في مجدها، وبالنسبة إلى السكان، فقد كانوا أكثر فقراً، وبناءً عليه، إضافة إلى أسباب جغرافيَّة، فإنَّ حكمها أكثر صعوبة.

إبراهيم بخطبة شديدة ضدّ خطاياهم مثل ما يمكن لأيّ حاكم أمويّ أن يخطب، وأعرب فيها عن دهشته من أنّه لم يمضِ وقت طويل على إخلاء الأمويين للمكان الملعون بوصفه مسكناً لغير المؤمنين، إضافةً إلى ذلك، لا شيء يمكن أن يرضي طبيعة المنصور المتعالية سوى ابتداع خاص به، إذ قرَّر بعد مداولات طويلة بناء العاصمة الجديدة في موقع على الضفة الغربيَّة لنهر دجلة، حتى استقر على مكان صغير اسمه بغداد،[1] وبقدر ما يمكننا أن نحكم، لقد سبق أن حقَّق الإقليم اتصالاً قبل هذا الوقت بنهر الفرات عن طريق القنوات، أمر المنصور في تمديد الاتصال وتحسينه على نحوٍ ملحوظ، وكان الاسمُ الرسميُّ للمدينة المزروعة هنا هو «مدينة السلام» («مدينة الرفاهيَّة»)، لكن في الاستخدام العمليّ، بقي الاسم القديم بغداد في التداول على وجه الحصر، يمكن مقارنة رؤية المنصور الثاقبة في اختيار هذا الموقع مع تلك التي أظهرها الإسكندر حين أسَّس الإسكندريَّة المصريَّة، وعلى أيّ حال، فإنَّ موقعَ هذه المدينة، التي أنشأها من العدم، كان مؤاتياً جداً لدرجة أنَّها سرعان ما أصبحتْ مدينةً عالميَّة، مع كلّ الأضواء والظلال لمثل هذه المدينة، التي لا يضاهيها أيّ مكان آخر، باستثناء القسطنطينيَّة، والتي، حتى أثناء التدهور الشديد لهذه البلدان منذ ذلك الوقت، وعلى الرغم من الضرر غير القابل للإصلاح الذي تكبدته

(1) بالنسبة إلى اختيار الموقع هذا، كان أحد العناصر التي أُخذت في الحسبان هو الغياب النسبيّ للبعوض، إذ يمكن لأيّ شخص تعرف إلى البعوض في نهر الراين أو البندقية أن يشكلَ تصوراً ضعيفاً لما يعانيه سكان تلك البلدان الساخنة، مع العديد من بركهم ومستنقعاتهم، من مصاصي الدماء الصغار.

بغداد ذاتها حين دمرَّها المغول عام 1258، ما تزال مدينةً عظيمةً والأكثر أهميَّة من دون منازع في منطقة نهري دجلة والفرات بأكملها.

بدأتْ أعمالُ البناءِ في أوائل صيف عام 762، وحين وردتْ أنباءٌ عن تمرّد محمّد، بصعوبة بلغ ارتفاع الجدران ستة أقدام، كما انتشرتْ شائعةٌ حين اقتربَ إبراهيم بأنَّه حقَّق نصراً عظيماً، وعندئذٍ أضرمَ المحرّر، الذي تُرِك مسؤولاً عن الكميَّات الكبيرة من مواد البناء الضخمة، النار في مخازن الأخشاب؛ لئلا تقعَ في يد العدوّ، وبمجرّد أن استقرَّتْ الإمبراطوريَّة مرَّة أخرى، أمر المنصور باستئناف العمليَّات، إذ أُنجز المبنى على مستوى فخم، أنفق الخليفة مبالغ طائلة في بناء مساكن له وعائلته وأنسبائه والمعتقين، وكذلك لضباطه وجنوده، وفي بناء المساجد، المكاتب الحكوميَّة، القنوات، جسور القنوات والتحصينات أيضاً، عيّن المخصّصات لأعضاء الأسرة الحاكمة والأعيان الذين سيبنون منازلهم عليها، وزُمَر الحرفيين والتجار وغيرهم من المستوطنين الذين توافدوا إلى المكان، كانتْ تكلفةُ المنازل المبنية من الطوب المجفف بالشمس قليلة، ويُحتمل أنَّه مباشرة، وعلى نحو غير مباشر حتماً، كانتْ مصاريفُ البُناةِ القليلة تأتي في كثير من الحالات من الخزانة العامَّة، ومن ناحية أخرى، توجَّبَ على التجار دفع ضريبة على متاجرهم، لقد أُنجزتْ المدينة العظيمة فعلياً عام 766، واكتملَ بناء أسوارها عام 768، تقع مدينة المنصور، الآنفة الذكر، على ضفة النهر الغربيَّة، حتى أنَّه أمر ببناء الجانب الآخر، حيث يقع الجزء الرئيس من بغداد الآن، حيث يوجد «معسكر» ابنه المهدي، بدا أنَّه

من الملائم وضع جزء من الحامية على الجانب الآخر من النهر، وبذلك، قد تتمكن فرقتا الجيش، إن دعت الضرورة، من كبح جماح بعضهما البعض، قدَّم المنصور لاحقاً لوائح شرطة خاصة، أمر بنقل الأسواق التي يرتادها عدد كبير من الغرباء، الذين لم يكنْ الإشرافُ عليهم بالأمر السهل، إلى خارج المدينة نفسها، لقد حُصّنَتْ بغداد بقوّة، وأمر المنصور أيضاً بتحصين مدن داخليَّة أخرى ذات أهميَّة على نحوٍ يجعل الحاميات قادرة على مواجهة التمردات العرضيَّة، وقد قام بهذا أيضاً في حالة مدينة الرفيقة، التي أسَّسها عام 772 إلى جوار الرقة [كالينيكوس]، على الضفة الشرقيَّة لنهر الفرات الأوسط، حيث أقام حامية للخراسانيين.

إنَّ الرقابةَ الصارمةَ التي مارسها المنصور على بناء عاصمته ما هي إلا مثال على نظام حكومته بأكمله، الذي كان شخصيّاً إلى أقصى حدّ ممكن، وبينما كانتْ المناصبُ ما تزال منوطة بعدد معيّن من النبلاء العرب، الذين أظهروا بين حين وآخر التمرد والوطنيَّة القبليَّة لعرقهم، حرص المنصور على ألا يتفوقوا عليه مطلقاً، ومنح في الوقت ذاته أهمَّ الولايات لأفراد مختلفين من عائلته، وأفسحَ المجالَ واسعاً أمامهم جميعاً، لكنَّه أبقاهم في خضوع تام وأدَّبهم بقسوة بين الفينة والأخرى.

امتلكَ المنصور أدوات جديرة بالثقة تكمن في رجاله المحررين وعملائه ذوي الأصول الأجنبيَّة، حتى أنَّه كان يعهد إليهم أحياناً بأهم المناصب الإداريَّة، ممَّا أثار استياء العرب الأرستقراطيين، وكان الحكامُ

وغيرهم من كبار المسؤولين في المقاطعات تحت إشراف صارم من ضباط متخصصين، مستقلين عنهم تماماً، يرسلون مجموعات متلاحقة من الرسل مع تقاريرهم إلى الخليفة،(1) على سبيل المثال: حين علمَ المنصور في إحدى المناسبات من هذا المصدر أنَّ حاكمَ حضرموت (في أقصى جنوب المنطقة العربيَّة) كان أكثر اهتماماً بمتعة الصيد من واجبات منصبه، عزله على الفور، حتى أنَّ تصرفات المهدي، ولي العهد، بصفته حاكماً لأراضي الشرق خضعتْ لهذا النوع من الرقابة، وهكذا، بعد أن علمَ الخليفةُ ذات مرَّة أنَّ المهدي قد أعطى لشاعر معيَّن مكافأة كبيرة جداً مقابل نسخة من قصيدة مدح، أجبر المتلقي على ردّ الجزء الأكبر من المبلغ،(2) نقل هؤلاء الضباط، إضافة إلى واجباتهم الخاصَّة، القضايا القانونيَّة الأكثر أهميَّة جميعها، والأحداث ذات الأهميَّة الخاصَّة كلّها، وأطلعوا الخليفة على ثمن المؤن أيضاً؛ إذ ارتُئي، لضمان السلم والأمن العام، أنّه من الضروريّ اتخاذ تدابير فوريَّة لمنع المجاعات،(3) كان المنصورُ حسنَ الاطلاع على حالة المقاطعات، إذ أُشيع أنَّه يملك مرآة سحريَّة يرى فيها أعداءه كلّهم،

---

(1) أُديرت المناصبُ الإمبراطوريَّة إدارة جيدة، كما هو الحال في الإمبراطوريَّة الفارسيَّة القديمة، لكن ليس للاستخدام العام، بل للاستخدام الحكوميّ فحسب.

(2) بما أنَّه خليفة، أعادَ المهدي بعد ذلك المبلغ كاملاً مرَّة ثانية للشاعر.

(3) مؤسف جداً أنَّ أياً من هذه التقارير لم يصلْ إلينا، وعلى العموم، لدينا عدد قليل جداً من الوثائق الأصليَّة لتاريخ الإمبراطوريَّة العربيَّة، ولا حتى التقارير العديدة التي حُفظت لنا، سواء كليّاً أو في جوهرها، كانتْ في الأعمال القائمة، من ناحية أخرى، فإنَّ سرد تاريخ الخلافة غزير.

والأفضل من ذلك هو أنّه وُصِف بكلماته الخاصَّة لابنه: «فلا تنَم وإنَّ أباكَ لم ينَم منذ وُلي الخلافة، ولا دخلَ عينَه غمض إلا وقلبهُ مستيقظ»، كان رجلَ مالٍ بارعاً، كثيراً ما اتُّهم بالبخل، فأُطلق عليه لقب «أبي الدوانيق» ـ وهي تهمة يُفترض أنَّها نبعتْ بالدرجة الأولى من أولئك الذين ستتحقق مصالحهم من خلال هذا التبذير على المحظيات اللواتي استجلبن سمعة غير مستحقة للعديد من الملوك الشرقيين، وقد تمتع حكامٌ جيدون بارزون آخرون، مثل الخليفتين الأمويين عبدالملك وهشام، بسمعة البخل، على نحوٍ مماثل، كان المنصور صارماً في الأمور الماليَّة، إذ أمر بإحصاء النفقات الهائلة التي أُنفقتْ على بناء بغداد حتى آخر قطعة نقديَّة، وأجبر ضباطه على ردّ الأرباح القليلة التي جنوها لأنفسهم، كما اعتمد بدرجة كبيرة على جباة الضرائب، إذ أمر، عند دفع ضريبة الأرض، بتلقي أنواع معيّنة فقط من عملات الأمويين الذهبيَّة التي كانتْ كاملةَ الوزن تماماً، ومن المؤكَّد أنَّه اتبع أيضاً المبدأ القديم الراسخ للأمراء الشرقيين، الذي يضطر بموجبه كبارُ الضباط الذين أتخموا أنفسهم إلى إعادة ما جمعوه من أموال،[1] حتى

(1) «في زمن لم يتم التفكير فيه بشيء بعد مثل عملية الائتمان الحكومي، حين كانت الإيصالات أقل من النفقات، لم تكن هناك وسيلة أخرى للحصول على المال سوى أخذها حيث كانت، والدولة؛ أي الخلافة، فعلت ذلك في شكل غرامات مالية، من خلال أخذ جزء أو كل مكاسبهم غير المشروعة بوجه عام من الناس ذوي الثروة سيئة السمعة... الشعب ككل، وجدوا أنفسهم في ظل هذا النظام أفضل بكثير مما لو تراكمت عليهم أعباء متزايدة من خلال زيادة عالمية للعادات والرسوم، ولهذا السبب، لا شك في أنني لا أجد أي شكوى بشأن هذا الموضوع عند أي من مؤرخي تلك الفترة.» فون كريمر، في رسالته المفيدة للغاية، Ueber das Einnahme

أنَّ أحدَ هؤلاء الضباط ذي المكانة الرفيعة، والخدمة البارزة في تأسيس ودعم الأسرة العباسيَّة، مثل خالد الفارسي،[1] ابن برمك، مؤسّس حكم البرامكة، تعرَّض لعمليَّة من هذا النوع، إذ استُدعيَ خلال مدَّة قصير للغاية لدفع 3000000 درهم (حوالي 57000 جنيه إسترليني)، وفي نهاية المطاف، اقتنعَ الخليفة بـ 2700000، بل حتى عباس شقيق المنصور نفسه أُجبر على التخلي عن الأموال التي أخذها من الناس حين كان حاكم بلاد ما بين النهرين، وسُجن إلى جانب ذلك، فلا يمكن لدولة شرقيَّة أن تمنعَ الانتهاكات التي يُثري بها المسؤولون الصغار والكبار أنفسهم بطرق غير مشروعة، واكتُشف بمناسبة إجراء مسح للأراضي في البصرة أنَّ عائلةً ذات أهميَّة؛ أي أحفاد «أبي بكرة» عتيق النبيّ، قد زادتْ ممتلكاتها إلى حدّ كبير، قطعها الخليفة إلى عشرة، وإليكم جزءاً من الموارد الماليَّة العليا:[2] أمر المنصورُ كلَّ ساكنٍ في الكوفة بدفع خمسة دراهم (قرابة شلنين)، امتثل الجميع لذلك فاستطاعَ المنصورُ بهذه الطريقة إحصاءهم بالضبط، وفرض على الجميع «ضريبة على الرؤوس» [3] أربعين درهماً (خمسة عشر شلناً)، واستخدمَ المال في تحصينات المدينة.

---

budget des Abbasiden-Reiches vom Jahre 306 h (فيينا 1887) ص. 11.

(1) الأكثر صحة، البكتري.

(2) إنَّها تشير إلى حكايات كتاب أرسطو المنحول «Oeconomica»، الكتاب الثاني.

(3) ذلك ما نقرأه، لكن بوسعنا التأكد من أنَّ المقصود هم رؤوس العائلات فقط.

لا يمكننا أن نجزمَ إذا كانتْ تلك القصة دقيقة، وعلى أيّ حال، يُحتمَلُ أنَّه سعى من خلال تدابير صارمة إلى زيادة الإيرادات قدر الإمكان، ولا سيَّما أنَّه ترك لخليفته بيت مالٍ فائضٍ، لكن لا بدَّ من الأخذ في الحسبان أنَّ مقياسَ الهدوء النسبيّ الذي أمّنه لمعظم بلدان إمبراطوريته كان أكثر من كافٍ للتعويض عن الضرائب المرتفعة، أمَّا إلى أيّ مدى كانتْ شكاوى المسيحيين من الاضطهاد الماليّ الخاصّ في عهد المنصور مبرَّرة، فهي نقطة يصعب علينا توضيحها الآن، لعلَّها نشأتْ في الأساس من الظرف الذي فُرِضت فيه الضرائب على الكنائس والأديرة، وهو أمر لم يكنْ غير معقول، فإن خفض مرَّة أخرى جزية القبارصة إلى المبلغ المحدَّد أصلاً بموجب معاهدة، فمن المحتمل ألا يرجع هذا إلى الإحساس بالعدالة بقدر ما يرجع إلى السياسة؛ فمن المستحسن أن يجري التعامل مع ملكيَّة ظاهرة بتعقل.

لا شك لدينا في أنَّ حكمَ المنصور، مهما كان قاسياً أو غادراً أو من دون رحمة في كثير من الأحيان، فإنَّه نعمةٌ على الإمبراطوريَّة في مجملها، إذ بإمكانه أن يقولَ عن نفسه بصدق أنَّه فعل الشيء الوحيد الذي تحتاجه «جموع الشعب»؛ فقد أصرَّ على الاستقامة (في أعمال موظفيه الإداريَّة والقضائيَّة)، حماهم من أيّ هجوم خارجيّ، وضمن السلام والهدوء الداخليين، كذلك حصد خلفاؤه، الذين لم يكونوا بأيّ حال من الأحوال في مستوى مماثل لمستواه، ثمارَ جهوده، إذ يُعزى الازدهار الكبير للإمبراطوريَّة تحت حكم حفيده هارون الرشيد إلى المنصور، يجب ألا يغيب عن الأذهان طبعاً، أنَّه حين نتحدَّث عن دولة شرقيَّة، لا بدَّ

من التعامل مع العدل والسلام الداخليّ بتحفظات كبيرة، فحتى أفضل الحكومات الشرقيَّة فاسدة جداً من وجهة نظرنا.[1]

كانتْ متطلباتُ المنصور الشخصيَّة قليلة؛ فقد وُلِد وترعرع في صحاري أدوم، لم يكنْ لديه دور في الترف الذي ساد في بلاط ابنه، الذي تحوَّل غالباً بعد ذلك إلى تبذير مفرط، ويبدو أنَّه لم يكنْ عبداً للنساء مثل سلفه، لم يشربْ الخمر، ولم يقبلْ بالموسيقا والأغاني في بلاطه، التي عُدَّت آنذاك من عوامل الفجور في أحيان كثيرة، ومن جهة أخرى، كان محباً للأدب، فقد أُعجِبَ على نحوٍ خاص بالتاريخ البطوليّ الرائع للمنطقة العربيَّة القديمة، وبما أنَّه رجل ذو هبات عقليَّة عالية، فقد أحبَّ معاشرةَ أشخاصٍ ذوي ثقافة وفكر، وجد متعة أيضاً في الأشعار و في فكاهة الزنجي السكير والعابث الموهوب أبي دلامة، الذي يبدو أنَّه مهرجُ البلاط أكثر من كونه شاعرَه، لقد أصبح من أشهر الخطباء العرب من خلال موهبته الطبعيَّة وثقافته، زد على ذلك، كان أوَّل من أمر بترجمة الأعمال العلميَّة اليونانيَّة إلى العربيَّة، و له نصيب على الأقلّ في نهوض العلم العربيّ الذي حدث في عصره.

كان الملكُ الذي انحنى أمام غضبه العالم كلّه في خوف خجول، وقيل عن قسوته الوحشيَّة أشياء مخيفة، أباً وسيداً طيباً في داره؛ إذ عرفَ كيف يقدر التصرف الصادق المحترم في الحالات التي يبدو فيها أنَّ هذا لا

(1) لا أعني، بقولي هذا، أنَّنا ـ نحن الأوروبيون ـ نعيش في جنة سياسيَّة.

ينطوي على خطر، وهكذا أطلق خارجيّاً كان من المقرَّر أن تُضرب رقبته في حضرته، وانهال عليه بالشتم، حين أشار له الخارجيّ إلى مدى سوء هذا السلوك، وأعرب عن تقديره الكامل للملوك الأمويين معاوية وعبد الملك وهشام، وكذلك خادم الأمويين الشجاع والمضحي؛ الحجاج العظيم.

اعتادَ أتباعُ العلويين الأكثر إخلاصاً على التأكيد بأنَّهم استمدوا من النبيّ حكمةً موروثة، كان هذا أحد الأسباب، أو حتى السبب الوحيد الذي من أجله طالبوا بالملك، لاقت وجهات نظر من هذا النوع، بين الفرس على نحو خاص، رواجاً كبيرة، كما قدَّم المطالبون والملوك العباسيون الأوائل ادعاءات مماثلة، كان الاعتقاد بأنَّ رؤوسَ أهلِ البيت يتمتعون بنور إلهيّ خاص جزءاً من الموضوع الجيّد، لكن بصرف البصر عن الأفراد الذين انتصروا بواسطة رُسُلهم في البداية، فإنَّ هذا الاعتقاد لم ينتشر، مالَ المسلمون العرب أكثر إلى عزو هذه الميزة إلى العلويين أكثر من الأسرة الحاكمة، لا شك في أنَّ المنصور نفسه قد نظر إلى عقيدة التنوير خاصته مثل ما رأى إمبراطور رومانيّ ذكيّ التشريفات الإلهيَّة التي منحها له الشعراء والأقاليم التابعة، على أي حال ، كانت طبيعته رائعة، ولن ينسبَ إليه أحدٌ التعصبَ الدينيّ، إذ ترك الهراطقة، الذين لم يشكلوا خطراً على الدولة، من دون مضايقة، ولم تتعرَّضْ المجموعاتُ الطائفيَّةُ إلى اضطهاد في عهده، كما حصل في عهد ابنه المهدي الذي نُصِّب بعد ذلك بمدَّة قصيرة، وما زال يوجد عددٌ أقلّ من مؤيدي آراء المدرسة التي لا تحظى بشعبيَّة، مثل تلك التي أصبحتْ شائعة فيها بعد، إضافة إلى ذلك، لم يكنْ الإجماعُ

على العقيدة أو الممارسة المتزمتة دينيّاً في الإسلام قد تحقَّق بعد في عهده؛ كان الكثير من عمال التخمير ما يزالون في العمل وطردوا لاحقاً، إذ اعتاد طبيبه المسيحيّ على الخمر، وزوَّده المنصور في قصره بالخمور الكريهة، ومن ناحية أخرى، أثنى على هذا الموظف لإخلاصه للزوجة العجوز التي تركها في المنزل، حين أعاد الجاريات الجميلات اللواتي قدّمهن له الخليفة؛ لأنَّ الدينَ المسيحيَّ فرض الزواج من شخص واحد، لكن كانتْ مراسيم وخطابات المنصور، وفقاً للاتجاه السائد للعصر، مليئةً بعبارات ونصوص ورعة من القرآن، اتضح هذا قبل كلّ شيء في الخطابات السياسيَّة الدينيَّة التي ألقاها أيام الجمعة من منبر الجامع الكبير، على غرار الخلفاء السابقين، ودفعته تقاليد عائلته أيضاً إلى الاضطلاع بدور عالم دينٍ إلى حدّ ما، ولا سيَّما تقديم أحاديث مزعومة للنبيّ، لقد وصلتنا بعضُ العينات المميّزة لهذه الأحاديث الشفويَّة التي نقلها إلى الآخرين، وبهذا ذكر أنَّ النبيَّ قال إنَّه عيّن للحاكم ربحاً محدّداً، ويعدّ كلّ ما يأخذه زيادةً عن هذا الربح نهباً غير مشروع.

لسوء الحظ، لم يتمتعْ الكثيرُ من حكام المنصور بصحوة الضمير لدرجة أن يأخذوا حديث النبيّ المضمون بهذه السلطة على محمل الجد، في الوقت ذاته، ومع مراعاة العوامل جميعها، لا أجرؤ على القول إنَّ المنصور لم يكنْ مؤمناً تماماً في أعماق قلبه، في الشرق، ما يزال أقلّ ممَّا هو عليه في الغرب، يتوقع المرء أن يجدَ استقامةً مطلقةً في مسائل الدين، لعلّ الرجلَ الذي انتهك بدم بارد أقدس أقسامه يجادل نفسه أنَّ الله الرحمن الرحيم سيغفر له في نهاية المطاف ذنوبه كلّها؛ لأنَّه كان مسلماً صالحاً، لعلَّه أمِلَ

أن ينسبَ إليه الله الصلاح لأنَّه ابنُ عمّ رسول الله، وذلك سيكون فكرةً عربيَّةً في الواقع، وعلى المنوال ذاته، يحتمل أنَّ حَجاته المتكررة، إضافة إلى هدفها السياسيّ، كما هو واضح، قد صُمّمتْ لتلبيةِ حاجةٍ شخصيَّةٍ أيضاً، كذلك يُعقل أن يكونَ المخطئ القديم قد اعتمد على النعمة الإلهيَّة لأنَّه واصل الجهاد بقوَّة ضدّ غير المؤمنين.[1]

تابعتْ الحربُ الحدوديَّة المدمرة، التي استمرَّتْ لقرون بين الخلافة والإمبراطوريَّة البيزنطيَّة، ولم تنقطعْ إلا بهدنة قصيرة، مسارها تحت حكم المنصور، وإن كان ذلك في الغالب على شكل غزوات نهب فحسب، تدمير البلاد الحرَّة، وتدمير الحصون والمدن المستقلة، لقد سعى المنصور إلى جعل حدوده ضد البيزنطيين آمنة قدر الإمكان من خلال تحصين عدد من المدن على نحو جديد وتزويدها بحاميات كافية، في هذا الصدد ، كانت عمليَّاتُ ترميمه لقلاع ميلاتيا المدمرة في أرمينيا الصغرى، وقلعة المصيصة (مقسوسطيا) في قيليقيا، وهي مدينة كاد أن يؤسّسها من جديد، ذات أهميَّة خاصَّة، عملتْ هذه القلاع الحدوديَّة بطبيعة الحال بوصفها قواعد للعمليَّات ضدّ أراضي العدو، وبالمثل، وضع المنصور المدن البحريَّة على الساحل السوريّ في حالة دفاع.

كان يوجد ما يكفي لفعله على الحدود الأخرى، فقد غزا الخزر

(1) كتب لوكريتيوس: «Tantum relligio potuit suadere malorum» (بالعربيَّة: كان الالتزامُ الدينيُّ قادراً على إقناعهم بارتكاب الكثير من الشرّ)، بدون أدنى فكرة عن البؤس الذي قُدّر له أن يحلَّ بالعالم من خلال عدوانيَّة التعصب الدينيّ السامي.

المتوحشون (فيما يعرف الآن بجنوب روسيا) الأراضي الواقعة جنوب القوقاز عام 764، واستولوا على تفليس، دمروا البلاد على أوسع نطاق، وهزموا أكثر من جيش واحد، ثم اختفوا مجدداً قبل أن تُرسلَ قوّة كافية ضدّهم، إلا أنَّ المنصور أخذ الآن الاحتياطات اللازمة، من خلال الأعمال الدفاعيَّة، لإحباط حملات هؤلاء وغيرهم من البرابرة الشماليين قدر الإمكان، الذين طالما عانتْ هذه الأراضي بشدَّة على أيديهم، لقد استولى بحزم على الأرض بأكملها حتى سلسلة الجبال العظيمة، وفرض ضريبةً على آبار النفط (النافثا) في باكو.

من جهة أخرى، بقيتْ المناطقُ الجبليَّةُ على الشاطئ الجنوبيّ لبحر قزوين غير خاضعة، نفذ الديلميون (في جيلان) هجمات نهب متكررة على البلد المجاور، كما جرتْ عادتهم منذ القِدم، وقد كانتْ الحربُ ضدّهم مستمرّة، لقد علمنا صدفةً أنَّ الخليفةَ استدعى عام 760-761 سكان الكوفة الأكثر ثراءً تحديداً لحمل السلاح ضدّ الديلميين، الآن، من الناحية النظريَّة، إنَّ كلَّ مسلم قادرٌ على حملِ السلاح ملزم باستمرار بمحاربة غير المؤمنين، ولكن قد نخمن أنَّ ما تطلع إليه المنصور على نحو رئيس هو المال الذي سيتعيّن على أولئك الرجال غير المحاربين دفعه مقابل الإعفاء من الخدمة، لقد ضُمَّتْ طبرستان (مازندران)، التي تحدّ جيلان من الشرق، وحيث حافظت عائلة من كبار المسؤولين في الإمبراطوريَّة الساسانيَّة على نفسها كأسرة مستقلة وما زالت تحافظ على

دين زرادشت، بالكامل تقريباً لأوّل مرّة في عهد المنصور.[1]

تلقى سفاحُ الرَّي السابق (رَغَه، بالقرب من طهران الحديثة)، الذي جمع جثث الرجال على مسؤوليته، وقاتل في المقدمة بشجاعة ضدّ سُنباذ،[2] أمْرَ تعيينه حاكماً، لكن غزو طبرستان هذا لم يتحدَّدْ بعد بصفة نهائيَّة.

استمرَّ النضالُ ـ مع العديد من الانقطاعات، في الحقيقة ـ ضدَّ غير المؤمنين (الأتراك وغيرهم) خارج نهر أوكسوس، وكذلك على الحدود الهنديَّة، حيث أُخِذت قندهار، من بين أماكن أخرى، أثناء حكم المنصور، إلا أنَّ توسعَ الإمبراطوريَّة المحمَّديَّة في هذه المناطق الحدوديَّة لم يكنْ عظيماً في أيّ مكان؛ إذ لا نعلم ما إذا كان الأسطولُ الذي أرسله المنصور من البصرة عام 770 لتأديب قبيلة من القراصنة في دلتا نهر السند قد نجح، لقد غامرَ أفرادُ هذه القبيلة قبل عامين بالوصول إلى البحر الأحمر ونهبوا جدة، ميناء مكة.[3]

في قمع تمرّد العلويين، ميَّزَ عيسى بن موسى، مثلما رأينا، نفسه على نحوٍ خاص، وبترتيب ملزم، ضمِن خلافة المُلك له، لكن تمنى المنصور أن يخلفه ابنه المهدي، وعليه، كتب إلى ابن عمّه خطاباً مليئاً بالحماسة، إذ صوَّر الجيوش على أنَّها تأخذ المهدي مأخذ الجد لدرجة أنَّه ينبغي على عيسى أن

(1) السنة الصحيحة غير معروفة.

(2) يُنظر ما ورد أعلاه.

(3) قلّما عملت الأسر العربيَّة العظيمة، مثل الرومان، بأيّ شيء ذي شأن في البحر.

يخضعَ له بالضرورة، كان لهذا الادعاء أساساً أقوى؛ لأنَّ الشاعر الخليع «المطيع» قد قدَّم أمام المحكمة المجتمعة نبوءةً للنبيّ أشارتْ بوضوح إلى المهدي بوصفه الأمير المستقبلي، وكان لديه الجرأة لاستدعاء العباس، شقيق الخليفة، كشاهد على صدق النبأ، وهي شهادة اضطرّ العباس إلى الموافقة عليها مرغماً، على الرغم من كلّ هذا، دافعَ عيسى عن نفسه، وأكَّد ـ لسبب وجيه حتماً ـ أنَّ الخليفة وضباطه ليسوا ملزمين بالقسم الذي قدّموه إليه لحماية حقوقه فحسب، بل هو ملزمٌ بقسمه أيضاً، ولا يجرؤ على التنازل عن مطلبه، في نهاية المطاف، من خلال التهديدات وأنواع الإلحاح جميعها، أصبحَ مذعناً، وتنازل عنه بشرط أن يكونَ خليفة المهدي، لقد حُرّر الضباط والناس بهذه الطريقة من شروط قسمهم لعيسى (764)، كان الشرط التابع للتنازل خادع إلى حدّ ما من البداية؛ لأنَّ ابن المنصور كان أصغر بكثير من عيسى، وقد نجا منه بالفعل، لكن قبل موت عيسى، أجبره المهدي، بوصفه خليفة، بكلّ تأكيد على التنازل عن مطالبه لصالح الهادي نجل المهدي.

توفي، في ذلك الوقت أيضاً (764)، منافس المنصور السابق، عمه عبد الله، الذي لجأ، مثل ما روينا سابقاً، بعد هزيمته مع شقيقه سليمان إلى البصرة (نهاية عام 754)، وحين علم المنصور أنَّه مختبئ هناك طالبه بالاستسلام، لكنَّه لم يُقبَلْ إلا بعد أن تعهدَ ببالغ الجدية بأنَّه لن يمسَّ عبد الله بسوءٍ، وقد تقرَّر، في الوثيقة التي وُعِدَ من خلالها بهذا الضمان؛ الوثيقة التي قبلها الخليفة، من بين أمور أخرى، أنَّ المنصورَ سيتنازلُ عن السيادةِ وإعفاء

رعاياه من قَسَم الولاء في حال خرقه للاتفاقية، لم تكنْ هذه البنود على ذوق المنصور: ربّما يفكر الناس يوماً ما في التعامل بجديَّة مع كلامه، لذلك فإنَّ كاتبَ الوثيقة، ابن المقفع، المشهور بكونه مصمّمَ أزياء وشاعراً، والجدير بالتقدير على نحو خاصّ بوصفه مترجماً للأعمال الفارسيَّة القديمة، وبسبب العبارات المذكورة، قد أعدم بوحشيَّة بناءً على إشارة من الخليفة، ولمّا جاء عبد الله (12 أيار عام 759) لابن أخيه، على الرغم من الوعود كلّها، قبض عليه، وقتل رفاقه، كما أنَّ عبدَ الله نفسه، بحسب الروايات، مات ميتةً عنيفة، مع ذلك، يصعب أن نفهمَ لماذا كان ينبغي على المنصور أن يبقي على حياة عمّه لمدة طويلة إن لم يكنْ السجنُ تدبيراً أمنياً كافياً؛ إذ إنَّ السجنَ سبع سنوات لرجل لم يعدْ شاباً كان بحدّ ذاته كافياً لتفسير وفاته، لا يمكننا الاعتماد على الأقاويل المختلفة التي تفيد بأنَّ وفاةَ محمَّد بن السفاح (أوائل عام 767) كانتْ بسبب العنف؛ لأنَّ الفرصةَ لم تسنحْ للمنصور ليخافَ من ابن أخيه الفاجر، وتبيّن لنا القصص الرائعة التي تُروى فيما يتعلَّق بهذه الأشياء، في الأحوال جميعها، ما اعتُقِد أنَّ أميرَ المؤمنين قادرٌ على القيام به، من ناحية أخرى، لا بدَّ لي من الإشارة إلى أنَّ المنصور، إن لم يتراجعْ عن أيّ فظاعة كان يعتقد أنَّها مفيدة، فمن الصعب أن يجدَ متعته في القتل وسفك الدماء فحسب، وبناءً عليه فهو لم يوافقْ على قتل عيسى لابن نصر؛ لأنَّ ابنه، الذي حارب لصالح الأمويين بشجاعة مثل نصر، لم يشكلْ مصدرَ خطر.

مع أنَّه بعد هزيمة العلويين أصبحتْ الإمبراطوريَّة بأكملها تحت سيطرة المنصور، لكن ما زالتْ شتى أنواع المشاكل في المقاطعات النائية

تُثار، البعض منها خطير جداً، على سبيل المثال: لا بدَّ أن يُقمعَ النبلاء الأرمن، الذين لطالما كانوا هائجين، بالقوّة مرة أخرى، وفي عام 767 اندلعتْ ثورةٌ عنيفةٌ أخرى في خراسان، يقال إنَّ زعيمها(1) ادعى أنَّه يمتلك موهبة النبوة، مهما كان هذا، فإنَّ الحركةَ كانتْ بلا شك ذات طابع دينيّ وهرطقيّ بقوَّة، ولا تعترف السجلات بالمتمردين على أنَّهم مسلمون على الإطلاق، لقد أُرسلَ خازم نفسه، الذي ولد أو ترعرع في خراسان، لمحاربتهم، لكن لم يكنْ بإمكانه إنجاز أيّ شيء حتى دبر لئلا يُسمح لوزير المهدي، ولي العهد، الذي حكم المقاطعات الشرقيَّة من الري بوصفه نائبَ الملك، بالتدخل في وحدة القيادة من خلال إصدار أوامر منفصلة للضباط المرؤوسين، بهذا أنهى التمرّد بانتصار رائع ومذبحة رهيبة (768)، ويقال إنَّه أمر بقطع رؤوس 14000 سجين، إذا أخذنا في الحسبان أنَّ شارلمان، بعد أربعة عشر عاماً، أمر بذبح 4000 أسير ساكسوني،(2) وذلك بأمر من الأمير (الخليفة بعد ذلك) هارون، الذي كان رجلاً ذا ثقافة أعلى بكثير من أيّ قائد من قادة المنصور أو ملك الفرنجة، وأُعدم 2900 سجين بيزنطيّ عام 765، ولا يبدو العدد المعطى للتو كبيراً جداً، كما نعلم أيضاً من حقائق أخرى أنَّ خازماً كان رجلاً صارماً جداً، لقد درَّبت الحروبُ مع غير المؤمنين، ولاسيَّما الأتراك والبيزنطيين،

---

(1) إنَّ اسمه الآن غير مؤكَّد تماماً، بسبب غموض الحروف العربيَّة وأخطاء النساخ.

(2) لم تكنْ الاعتراضاتُ التي حُرِّض عليها مؤخراً ضدّ هذا الكلام قويَّةً بما يكفي لإبطالها.

والحروب الأهليَّة، سلالةً من المقاتلين الشجعان لكن عديمي الرحمة، لقد أُتي بزعيم التمرّد سجيناً أمام المنصور وأُعِدم.

اندلعتْ ثورةٌ كبيرةٌ أخرى بعد ذلك بمدَّة قصيرة في إقليم «أفريقيا» (الذي يقابل طرابلس وتونس الحديثة تقريباً)، حيث لم تكنْ الأمور هادئة تماماً في الواقع، وكان للثورة منشأ دينيّ وقوميّ أيضاً؛ إذ كان المتمردون من البربر والخوارج، خاض حاكم الخليفة، الذي نُقِل قبل مدة وجيزة إلى إفريقيا من الحدود الهنديَّة ـ على مسافة ستين درجة من خط الطول تقريباً ـ معركة ضدّهم، أرسل المنصور الآن يزيد بن حاتم، برفقة جيش كبير إلى مكان المعركة، وليوضح مدى أهميَّة الأمر في نظره، رافقه شخصيَّاً حتى القدس (770)، لقد حقَّق يزيد في العام التالي نصراً حاسماً، ودخل العاصمة، القيروان، منتصراً، حيث بقي حاكماً لمدة طويلة بعد وفاة المنصور، لم تتوسعْ أراضي الخليفة إلى أبعد من ذلك بكثير، وفُصلتْ المناطقُ الواقعةُ إلى الغرب عن الخلافة منذ سقوط الأمويين، في إسبانيا، أسَّس عبد الرحمن الأموي، حفيد الخليفة هشام، إمبراطوريَّة مستقلة بسرعة، بعد أن تغلبَ على مخاطر لا حصر لها، ووصل إلى البلاد من دون موارد ولا حلفاء، في سن الخامسة والعشرين، في ربيع عام 756، وقد باءت جهودُ المنصور كلّها لتحطيم حكمه بالفشل، وعلى غرار المنصور نفسه، كان ابنَ أمَةٍ بربريَّة، لقد عرف الخليفة، مثل ما رأينا، كيف يميز الشجاعة والعظمة حتى في أعداء بيته، إذ أطلق عليه لقب «صقر قريش» (القبيلة التي ينتمي إليها الأمويون والعباسيون والعديد من العائلات الأخرى ذات الأهميَّة).

كانتْ الانتفاضاتُ في شمال المنطقة العربيَّة أقلّ أهميَّةً بكثير من تلك التي تحدَّثنا عنها للتو، والتي أخمدها عُقبة عام 768 أو 769، بذلك أراق عقبة، وهو عربيٌّ يمنيّ، كميَّةً مفرطةً من الدماء بسبب العداء القبليّ، ورغبة منه في تقديم هدية جميلة لضابط أرسله الخليفة إليه، فقد سلّمه خمسين أسيراً، كان سيأخذهم معه إلى البصرة، كأنَّه على وشك قطع رؤوسهم وتعليق أجسادهم، ثم سيكون رجال قبائلهم في تلك المدينة مستعدين لتخليصهم بمبلغ 10000 درهم (200 جنيه إسترليني تقريباً) عن كلّ سجين، لكن للأسف، أفسد مزاج الجماهير وتدخل قاض ذكي مع خطة جيدة، وبناءً على تقريره إلى الخليفة، شُكر وأُطلق الأسرى.

لقد أصبحَ المنصورُ خليفةً أثناء عودته من رحلة حجّ إلى مكة، وقُدِّر له أن يموتَ في رحلة مماثلة إلى مكة، إذ ارتحل مجدداً عام 775، وفي طريقه أُصيبَ بمرض في الأمعاء (الزحار)، الذي ربَّما ارتبط باضطرابات الجهاز الهضميّ التي عانى منها سابقاً، لقد أدَّتْ حرارةُ أواخر الصيف العربيّ، والإرهاق وحرمان الرحلة (التي توجب فيها على الخليفة في كثير من الأحيان أن يكتفي بمياه شرب فاترة)، إلى تفاقم المرض في رجل تقدّم الآن إلى حدّ ما بالعمر، ما لم يكونوا سبباً في ذلك أيضاً، نجح في الوصول إلى الأرض المقدَّسة، لكن ليس إلى الحرم نفسه، توفي يوم السبت الموافق 7 تشرين الأول عام 775 ـ وفقاً لمراجع أخرى، يوم الأربعاء السابق ـ في بير ميمون، على بعد ساعة تقريباً من مكة، بعد حكم دام واحداً وعشرين عاماً وبضعة أشهر، لقد تجاوز عمره الستين، وتتأرجح المراجع بين 63

و68 عاماً قمريّاً (واحد وستون وستة وستون عاماً شمسيّاً)،[1] كان الأشخاصُ الوحيدون الحاضرون هم حاجبه المُعتق الربيع، وهو مقرب ذو نفوذ، وبعض الخدم، احتفظ الربيعُ بسرّ الموت لبعض الوقت، بغرض إجراء الترتيبات اللازمة لضمان العرش للمهدي، دُفِنَ المنصور قرب المدينة المقدَّسة، مهد عائلته، اعتقدت الأجيالُ اللاحقة أنّهم يعرفون قبره، لكن الكلام بعيد الاحتمال عن الصحَّة إذ إنَّ عدداً من القبور (يقال «مئة») قد حُفرت، حتى يبقى مكان مثواه الحقيقيّ مجهولاً، ففي مكان التقاء الأرواح المضطربة جميعها، حيث لم تستطعْ سلطةُ الحكومة المركزيَّة مطلقاً ترسيخ وجودها بقوَّة كما هو الحال في أراضي الحضارة القديمة، قد ينتصرُ عدوٌّ ساخطٌ للأسرةِ بسهولة في يوم من الأيام، وفي هذه الحالة، ليس من المستبعد أنّه قد ينبش ويهين جسد أشدّ أعضائها قوّةً وأكثرهم بغضاً، مثل ما فعل عبد الله، عم المنصور، بجثث الأمويين.

لقد شَهِدَ الشرقُ العديدَ من الحكَّام الذين اقتربوا من المنصور، أو حتى تجاوزوه، في الازدواجيَّة والأنانيَّة المطلقة عديمة الضمير، غير أنّه لا يُوجَدُ شخصٌ تمتّعَ في الوقت ذاته بمثل هذا الفكر القياديّ، أو (بوجه عام وعلى الإجمال) تمتّعَ بتأثيرٍ قويّ لصالحِ تطوّرِ إمبراطوريّته.

(1) قارن مع أعلاه، لم يعرف المنصور نفسه على الأرجح سنة ولادته بالضبط، ناهيك من عيد ميلاده.

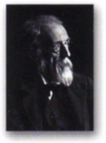
فهرس المحتويات

Philology of Islam: The Qur'an, Islam, and Caliph

هذا الكتاب

يعدُّ هذا الكتاب كتاباً كلاسيكيّاً من الطرازِ الأوّل، يُنقل للمرّة الأولى إلى العربيّة، ويتضمّن مجموعة مقالات تُسلّط الضوء على تطوّر العقيدة الإسلاميّة من وجهة نظر ثيودور نولدكه شيخ المُستشرقين في زمنه من دون منازع، يتعاطى نولدكه في دراسته مع موضوعات جوهريّة في تاريخ الإسلام: القرآن، والإسلام، والخليفة، وتتمركَز القيمة العلميّة في مجموعة هذه الأبحاث: أولاً- في المنهج الفيلولوجيّ الذي اقتفاه المؤلف، وهو متمرس وضليع فيه، ويعدُّ مثلاً يُحتذَى به للدارسين في حقلِ الإسلاميّات. ثانياً- في طبيعة النتائج التي خلصت، والتي ما يزال الكثير منها لم يتجاوزه الباحثون المعاصرون. إنّه كتابٌ قيمته العلميّة عظيمةٌ، ونقله إلى اللّغة العربيّة للمرّة الأولى يسدُّ فراغاً كبيراً فيها.

ثيودور نولدكه



مستشرقٌ وباحثٌ ألماني، (1836- 1930)، حصل على درجة الدكتوراه عام 1856م وهو ما يزال في سِن العشرين عن تاريخ القرآن، وعُين مدرساً للتاريخ الإسلامي في جامعة غوتينغن عام 1861، وأستاذاً للتوراة واللغات السامية في كييل عام 1864، وتراوحت اهتماماته البحثية بين دراسات العهد القديم واللغات السامية والأدب العربي والفارسي والسرياني، كتب العديد من المقالات والدراسات (بما في ذلك عن القرآن)، ومن مؤلفاته: في نحو العربية الفصحى (1897)، أبحاث عن علم اللغات السامية (1904)، وأبحاث جديدة عن علم ألُلغات السامية (1911).

هشام شاميّة



مُترجمٌ سوريٌّ، وُلد في مدينة دمشق عام 1985، درسَ في جامعة دمشق قسم التَرجمة في اللّغة العربيّة والإنكليزيّة، عملَ في مجال ترجمة البحوث والمقالات الدّينيّة والاجتماعيّة، وترجمَ طائفةً من الكتب إلى اللغة العربية، منها: المشركون والمسيحيّون اليهود في القرآن، مكّة قبلَ الإسلام، الكنيسةُ في ظلّ المسجد، الألوهيّةُ والقبائل.

The Academic Center for Research
CANADA- TORONTO





للحصول على كتب إصداراتنا



+964 780 226 2494
facebook.com/acadcntr
www.acadcr.com
info@acadcr.com



ISBN 978-1-990131-29-5
9 781990 131295